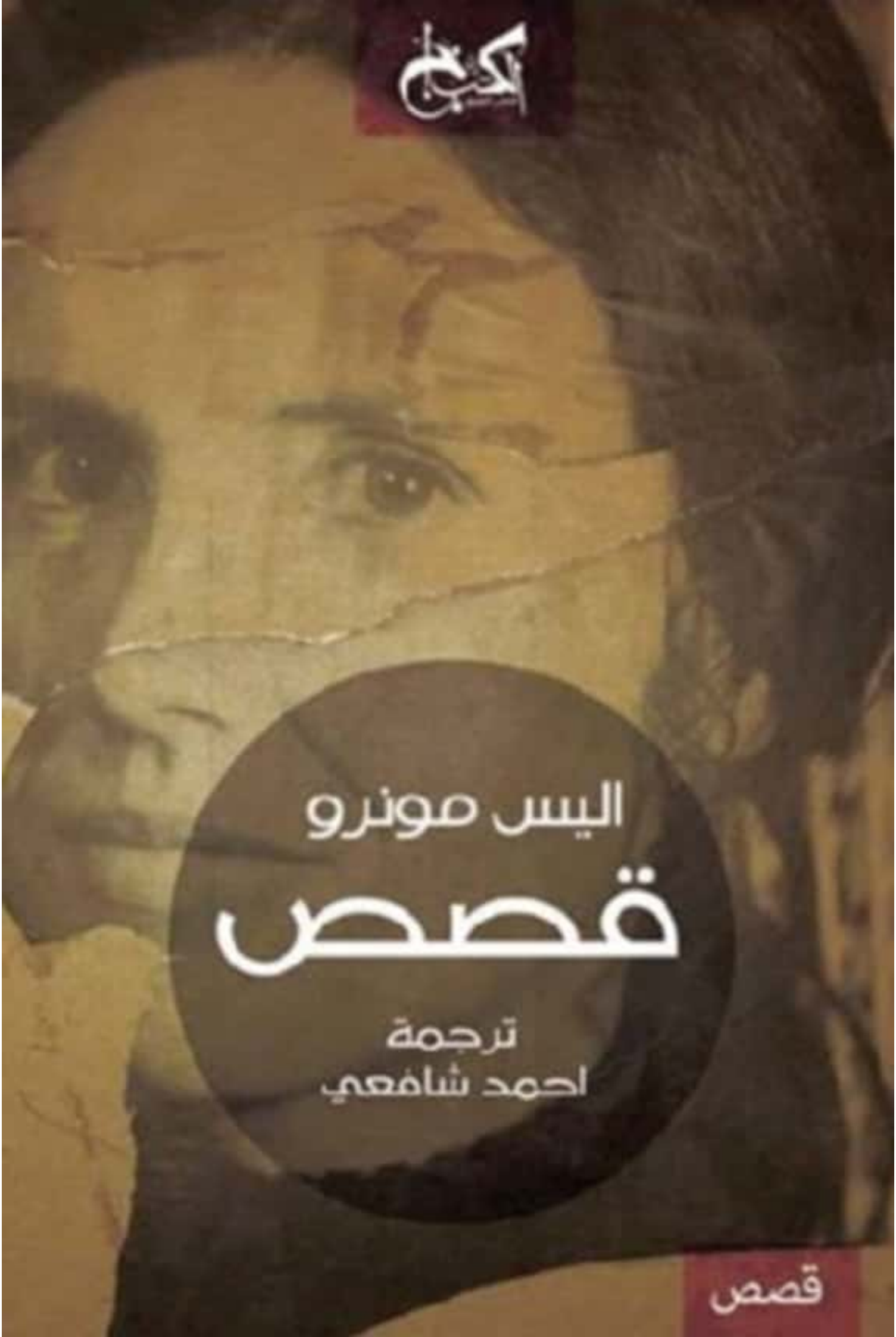
اليس مونرو
قصص
ترجمة
احمد شافعي
قصص

اليس مونرو

قصص

الكتب خان للنشر والتوزيع

جميع الحقوق محفوظة©

في البداية، كان الناس يتّصلون بـ"نيتا" ليطمئنوا أن الغمّ لم يهزمها، ولا الوحدة، أنها لا تأكل أقل مما ينبغي، أو تشرب أكثر مما ينبغي. (وكانت شاربة نبيذ مخلصة، فنسي الكثيرون أنها الآن ممنوعة تمامًا من الشرب). وهي كانت تصدّهم، دون أن يظهر في صوتها نبلٌ من غَلَبها الحزنُ، أو بهجة غير طبيعية، أو تبدو شاردة الذهن، أو مرتبكة. كانت تقول إنها لا تحتاج إلى "بقالة" فما لديها يكفيها. وكانت لديها كفايتها من الأدوية، وعندها من طوابع البريد ما يغطي رسائل الشكر.

لعلّ الأصدقاء المقربين منها كانوا يخمّنون الحقيقة، وهي أنها لم تكن تأكل الكثير، لأنها لم تكن معنية بذلك، وأنها ترمي كل رسالة تعاطف يتصادف أن تصل إليها. بل إنها لم تكن نقلت الخبر إلى المقيمين بعيدًا، لكي لا تستنفر منهم هذه النوعية من الرسائل. فلم تخبر طليقة ريتش في أريزونا، أو شقيقه شبه الغريب، رغم أن هذين الاثنين بالذات كانا على الأرجح سيتفهّمان، دون القريبين منها، لماذا قرّرت عدم إقامة جنازة.

كان ريتش قد أخبرها أنه ذاهب إلى محل الخردوات في القرية، والساعة حينذاك قاربت العاشرة صباحًا، وقد بدأ لتوه في طلاء سور الشرفة. أو أنه، للدقة، كان قد جهّزه للطلاء الجديد، بكشطه الطلاء القديم، الذي امتلأت يداه برقائقه.

لم يتسع لها الوقت كي تتساءل عن سرّ تأخّره، فقد مات متّكئًا على لافتة مثبتة في الرصيف، أمام محل الخردوات، تعلن عن تخفيض على جزّازة العشب. لم يتمكن حتى من دخول المحل. كان عمره إحدى وثمانين سنة وفي صحة طيبة، اللهم إلا بعض الصمم في أذنه اليمنى. وكان طبيبه قد فحصه قبل أسبوع واحد فقط، لتعلم نيتا لاحقا أن الفحص الحديث، والتقرير الطبي النظيف، يظهران بوتيرة مدهشة في قصص الوفيات المفاجئة، التي باتت الآن على دراية بها، إلى حد أنها قالت "الظاهر أنه يستحسن تجنّب هذه الفحوصات".

كان ينبغي ألا تتكلم بهذه الطريقة إلا مع صاحبتيها المقزبتين منفلتتي اللسان، فرجينيا وكارول، وكلتاهما تقريبًا في مثل سنها، أي الثانية والستين. أما أصغر صاحباتها فرأت هذا الكلام غير لائق. في البداية ازدحم الناس حول نيتا. لم يتكلموا في مسألة الحزن والفقد، لكنها ظلت تخشى احتمال أن يبدأوا فيها في أي لحظة.

ولكنها لم تكد تبدأ في الإجراءات والترتيبات بالفعل، حتى تبدد الجميع من حولها، فلم يبق إلا من أثبتت التجارب معادنهم. أرخص تابوت، وفي الأرض فورًا، بلا مراسم من أي نوع. حتى إن الحانوتي قال إن ذلك قد يكون غير قانوني، لكنها وريتش كانا على معرفة وثيقة بالمعلومات اللازمة، التي حصلا عليها قبل عام تقريبًا، عند استلامهما التشخيص النهائي بإصابتها بالسرطان.

قالت "وما الذي كان يدريني أنه سوف يخطفها من فمي؟"

لم يتوقّع الناس عزاءً تقليديًا، لكنهم كانوا ينتظرون على الأقل نوعًا ما من الإجراءات الحديثة، يُحتفَى خلالها بحياته، وتُعزَف موسيقاه المفضلة، ويمسك المعزون أيدي بعضهم بعضا، ويروون حكايات تثني على الراحل وتنبئ من طرف خفي ضاحك بعاداته وأخطائه البسيطة المغفورة.

أي أنهم كانوا ينتظرون شيئا مما قال ريتش نفسه إنه يثير غثيانه.

جرت الأمور في أضيق الحدود، وما كادت الحركة تنتهي، حتى تلاشى الدفء الكاسح الذي أحيطت به نيتا، وإن بقي من رجّحت نيتا أن يقولوا إنهم مشغولون بأمرها. وذلك ما لم تقله فيرجي وكارول. كل ما قالتاه إنها تكون قحبة دموية أنانية لو فكرت أن تخلع الآن، أو في أي وقت سابق للأوان. قالتا إنهما سوف تمزان عليها، لتنعشاها ببعض من فودكا الإوزة الرمادية.

طمأنتهما أنها لا تنتوي ذلك، وإن كانت ترى في الفكرة منطقًا راسخًا.

بفضل العلاج الإشعاعي في الربيع الماضي، كان السرطان متراجعًا في ذلك الوقت، مهما يكن معنى ذلك. ولم يكن يعني، طبعًا، أن السرطان انتهى. ليس إلى غير رجعة على كل حال. كانت كبدها مسرح العمليات الرئيسي، وطالما بقيت حذرة، لم تكن تتألم. كل ما في الأمر أنها كانت تغمّ صاحبتيها كلما ذكّرتهما أنها لا تستطيع تناول النبيذ، ناهيكم عن الفودكا.

مات ريتش في يونيو. وانتصف الصيف. وها هي تنهض من فراشها مبكّرة فتغتسل، وترتدي ما يقع في يدها، لكنها تلبس وتغتسل، وتغسل أسنانها وتمشط شعرها الذي نما من جديد أنيقًا، رماديًا حول وجهها، أسود من الأطراف، تمامًا كما كان من قبل. تطلي شفتيها، وترسم حاجبيها، الرفيعين للغاية حاليًا، وبدافع من احترامها طول عمرها للخصر النحيل والوركين المعتدلين، تتفخص ما حققته في هذا الصدد، رغم معرفتها أن

الوصف الوحيد الملائم لكل جزء في جسمها هو "الممصوص".

تجلس في مقعدها الوثير المعتاد، ومن حولها أكوام من الكتب والمجلات المغلقة. ترشف بحذر من فنجان شاي الأعشاب الضعيف الذي أصبح حاليا بديلها عن القهوة، وكانت، في زمان مضى، لا تتصوّر الحياة دون القهوة، حتى تبيّن أن الفنجان الضخم الدافئ، وليس أكثر، هو ما تريده بين يديها، ليكون عونًا لها على التفكير، إن كان تفكيرًا بحق هو ما تمارسه على مدار الساعات أو الأيام.

كان هذا بيت ريتش. اشتراه حينما كان مع زوجته الأولى "بيت"، بنيّة أن يكون مكانا للإجازة الأسبوعية، لا يفتح في الشتاء. بيت على بعد نصف ميل من القرية، فيه غرفتا نوم ضئيلتان، ومطبخ مفتوح. لكن سرعان ما بدأ ريتش يشتغل عليه، ولأجله تعلّم النجارة، فأقام جناحًا لغرفتي نوم جديدتين وحمام، وجناحًا آخر لمكتبه، محيلا البيت الأصلي لغرفة معيشة مفتوحة وغرفة طعام ومطبخ. وأصاب الاهتمام "بيت"، بعدما زعمت أول الأمر أنها لا تفهم لماذا اشترى زوجها من الأساس مقلب الزبالة هذا، لكن التحسينات العملية كانت مسألة تهمّها دائمًا، فاشترت منزري نجار متماثلين. كانت بحاجة إلى ما تنشغل به بعدما انتهت من كتاب الطبخ الذي ظل يستحوذ عليها سنين عديدة، إلى أن نشرته. ولم يكن عندهما أبناء.

وفي الوقت الذي كانت "بيت" منهمكة فيه في إخبار الناس بأنها وجدت دورًا في الحياة كمساعدة نجار، وبأن ذلك قرّبها هي وريتش كثيرًا، كان ريتش يقع في غرام نيتا، التي كانت تعمل في مكتب مسجّل الجامعة التي يعمل فيها ريتش أستاذًا لأدب القرون الوسطى. أول مرة ناما فيها معا كانت وسط النشارة وألواح الخشب المنشورة في الجزء الذي كان ليصبح لاحقًا غرفة البيت المركزية ذات السقف المقبب، وذلك في إجازة أسبوعية بقيت خلالها "بيت" في المدينة. وتركت نيتا نظّارتها، دونما قصد، رغم أن "بيت" - التي لم تنس في حياتها شيئا- لم تصدّق ذلك. ووقعت الجلبة المعتادة، المبتذلة والمؤلمة، وانتهت بذهاب "بيت" إلى كاليفورنيا، ثم إلى أريزونا، واستقالة نيتا من وظيفتها أخذا باقتراح المسجل، وضاعت على ريتش عمادة كلية الآداب. فتقاعد مبكّرًا، وباع بيت المدينة، ولم ترث نيتا منزر النجار الصغير، لكنها راحت تقرأ كتبها في ابتهاج وسط فوضى البناء، وتعدّ وجبات عشاء بدائية على فرن كهربائي، وتخرج لتتمشّى طويلا بقصد الاستكشاف، لترجع محفلة بباقات غير منمقة من زهور زنبق

النمر والجزر البري، تضعها بعد ذلك في علب الطلاء الخاوية. وحدث لاحقا، حينما استقرت هي وريتش، أن شعرت ببعض الحرج عندما فكّرت أنها كانت جاهزة تمامًا للعب دور المرأة الصغيرة، خَزابة البيوت السعيدة، اللذيذة، الضاحكة، مدّعية السذاجة، مرتكبة الغلطة المكشوفة. في حين أنها في الحقيقة كانت امرأة أميل إلى الجدّية، في جسمها شيء من الخرق، واعية بذاتها، قادرة لا على أن تسرد أسماء ملوك إنجلترا فقط، بل وملكاتها، وسرد وقائع حرب الثلاثين عامًا بالمقلوب، لكنها كانت تخجل من أن ترقص أمام الناس، ولم تتعلّم قط، على العكس من "بيت"، كيف تقف على سلّم العقال المنفرد.

كان للبيت في ناحية منه صف من شجر الأرز، ومن الأخرى خط سكة حديدية مرتفع. ولم تكن حركة السكة الحديدية كثيرة قط، فما هما غير قطارين يمزان في الشهر، فكانت الحشائش كثيفة بين القضبان، وحدث مرة وهي على شفا انقطاع الطمث، أن استفزّت ريتش أن ينام معها هناك، ليس على العوارض الخشبية بالطبع، ولكن على شريط العشب الملاصق لها، فمضيا إلى هنالك جامحين، وسعيدين بنفسيهما.

كانت تفكر كل صباح، بمجرد أن تجلس في مقعدها، في الأماكن التي ليس ريتش موجودًا فيها. ليس في الحمام الصغير، حيث لم تزل أدوات حلاقته موجودة، هي والأقراص الموصوفة لشتى مشكلاته التي كان يرفض أن يرميها. ولا هو في غرفة النوم التي نظفتها حالا وخرجت منها، ولا في الحمام الكبير الذي لم يكن يدخله إلا ليستحم في حوضه. ولا في المطبخ الذي أوشك أن يكون منطقته الأساسية خلال السنة الأخيرة. ولا هو بالطبع بالخارج في الشرفة، التي لم يكتمل كحت طلائها، مستعدا أن يمازحها من الشباك كما كان يفعل في الأيام الأولى، إذ يفاجئها من ذلك الشباك فتتظاهر هي بالفزع لمرأى الذكر المتلصص.

ولا في المكتب. وذلك، دون جميع الأماكن، هو المكان الذي ينبغي التحقق فعلا من غيابه عنه. في البداية، كانت ترى من الضروري أن تذهب إلى الباب فتفتحه وتقف هناك تستعرض أكوام الورق، والكمبيوتر الهالك، والملفات الطاغية، والكتب الملقاة مفتوحة أو مقلوبة على أوجهها، أو المكدسة على الأرفف. أما الآن فتكفيها نظرة على كل ذلك.

وفي أحد هذه الأيام، سيكون عليها أن تدخل الغرفة. كانت ترى في ذلك غزوا. لكن سوف يكون عليها أن تغزو عقل زوجها الميت. لولا أنه

احتمال لم تضعه قط في الاعتبار. فقد كان ريتش يبدو لها تجسيدا للكفاءة والمقدرة، ذا حضور فيه من الحيوية والثبات ما جعلها دائما تعتقد ـ اعتقادا لا يستند إلى منطق ـ أنه سيعيش من بعدها. إلى أن أصبح الاعتقاد في السنة الأخيرة خاليا من الحماقة تماما، بل لقد أصبح في ذهنيهما ـ مثلما كانت ترى ـ يقينا لا يرقى إليه شك.

تعاملت أولا مع القبو. وهو قبو فعلا لا مجرد طابق تحت الأرض. ممرات من ألواح خشبية، وأرضية ترابية، وشبابيك تعشش فيها العناكب. ولم يكن فيه شيء سبق لها أن احتاجته على الإطلاق. ليس سوى أنصاف علب الطلاء، وألواح مختلفة الارتفاعات، وأدوات إما للاستعمال وإما جاهزة للرمي. ولم تكن فتحت الباب ونزلت الدرج إلا مرة منذ موت ريتش، لتتأكد أن المصابيح مطفأة، وأن علبة المحوّلات الكهربائية الرئيسية هناك، وعلى كل منها ورقة تعرف منها أيها يتحكم في أي الغرف. ولما صعدت، أحكمت إغلاق باب القبو المجاور للمطبخ، بحكم العادة، وكانت هذه العادة مثار سخرية ريتش، الذي كان يسألها ما الذي تتصور أن ينفذ من الجدران الحجرية والنوافذ القزمية ليهددهم.

ومع ذلك، يبقى القبو هو البداية الأسهل، الأسهل مائة مرة من المكتب.

رتبت السرير، ونظمت فوضاها البسيطة في المطبخ أو الحمام، ولكن بصفة عامة كان الدافع إلى أي أعمال منزلية شاملة أمرا بعيدا عنها تماما. لم تكن لتقوى على التخلص من مشبك ورق منبعج، أو مغناطيس فقد فعاليته، ناهيكم عن طبق العملات الأيرلندية الذي أحضرته هي وريتش من رحلة قبل خمسة عشر عاما. بدا أن كل شيء قد اكتسب ثقل تميزه وغرابته.

كانت واحدة من كارول وفيرجي تتصل كل يوم قرابة وقت العشاء الذي لا بدّ أنهما تظنان أنه أشد أوقات الوحدة عليها. فكانت تقول لهما إنها بخير، وإنها سوف تخرج من وكرها عما قريب، وإن كل ما تحتاجه الآن هو أن تفكر، وتقرأ. وتأكل وتنام.

وكان هذا صحيحا، باستثناء الجزء الخاص بالقراءة. فقد كانت تجلس في مقعدها محاطة بالكتب فلا تفتح أيا منها. وهي التي كانت من قبل قارئة دؤوبة، وذلك ـ فيما كان يقول ريتش ـ واحد من الأسباب التي جعلتها مناسبة له، حيث أن بإمكانها أن تنهمك في القراءة وتتركه وحده، ولكنها الآن غير قادرة على المواصلة ولو لنصف صفحة.

وأيضا لم تكن من قرّاء المرّة الواحدة. فـ"الإخوة كرامازوف"، "طاحونة على نهر فلوس"، "جناحا اليمامة"، "الجبل السحري"، أعمال قرأتها مرات ومرات، كانت تتناول إحداها بنيّة استعادة فقرة معينة، فتجد نفسها عاجزة عن التوقف إلى أن تأتي على الكتاب كله مرة أخرى. وكانت تقرأ الأدب الحديث أيضًا. والأدب طول الوقت. وتكره من يصف الأدب بـ "المهرب". بل إنها قالت مرة في نقاش، غير هازلة، إن الحياة الواقعية هي المهرب. الحياة الحقيقية أصبحت الآن أصعب من أن يدور حولها نقاش.

والغريب الآن أن كل هذا مضى. ليس فقط بموت ريتش، بل وبانغماسها هي الأخرى في المرض. لقد كانت تظن أن التغيير عابر، وأن سحر القراءة سوف يعاود الظهور بمجرد التوقّف عن تعاطي أدوية معينة وعلاجات مرهقة.

إنما الظاهر لا.

وحاولت في بعض الأحيان أن تفسر هذا لسائلة تتخيلها

"أصبحت مشغولة للغاية"

"هذا ما يقوله الجميع. في أي شيء؟"

"مشغولة للغاية بالانتباه".

"الانتباه إلى ماذا؟"

"أقصد بالتفكير".

"فيم؟"

"وأنت مالك؟"

وذات صباح، بعد أن جلست بعض الوقت، قررت أن اليوم بالغ الحرارة، وأن عليها أن تقوم فتفتح المراوح. أو ربما تقوم، بمزيد من المسئولية تجاه البيئة، فتفتح البابين، الأمامي والخلفي، ليدخل تيار هواء، إن كان ثمة هواء، ويمر في البيت.

فتحت الباب الأمامي أولا. وقبل حتى أن تتيح نصف بوصة أمام نور الصباح ليعرض من خلالها نفسه، كانت ترى شريطا أسود يقطع مسار الضوء.

كان ثمة شاب واقف أمام الباب السلكي المغلق بالخطاف.

قال "لم أقصد أن أفزعك. كنت أبحث عن جرس أو ما شابه. طرقت طرقة خفيفة على الإطار الخشبي، لكن يبدو أنك لم تسمعيها".

قالت "آسفة".

"المفروض أن أنظر في علبة المحولات الكهربائية. لو أمكن أن تخبريني بمكانها".

تنحت جانبا لتسمح له بالدخول. واحتاجت لحظة لتتذكر.

قالت "نعم، في القبو. سأفتح لك النور. ستراها".

أغلق الباب وراءه وانحنى يخلع الحذاء.

قالت "لا بأس، الدنيا لا تمطر يعني".

"واجب على كل حال. أصبحت عادة. وقد أترك أثرًا من التراب بدلا من الطين".

مضت إلى المطبخ غير قادرة على الرجوع إلى المقعد قبل أن يخرج.

فتحت له باب القبو وهو طالع على الدرج.

قالت "تمام؟ كله تمام؟"

"جيد".

كانت تقوده إلى الباب الأمامي، ثم أدركت أنها لا تسمع وقع خطى من ورائها. استدارت فوجدته لا يزال واقفا في المطبخ.

"أليس واردا أن تجدي لي شيئا آكله؟"

نبرة صوته تغيرت، انشرخت، علت قليلا فجعلتها تتصور كأنه ممثل كوميدي يلعب دور ريفي. في نور الصباح الذي يملأ المطبخ، رأت أنه ليس شابًا بقدر ما تصورت. لم تكن قد رأت حينما فتحت الباب إلا جسمًا نحيلا، ووجها معتما بسبب الشمس من ورائه. أما الجسم الذي تراه الآن فنحيل بالطبع، لكنه نحول الهزال لا الشباب، النحول الذي لا يخلو من بعض الترهل. وجهه طويل ولين، وعيناه زرقاوان واسعتان، فيهما نظرة ضاحكة، وإصرار أيضًا، كما لو كان يعرف بصفة عامة كيف يجد طريقه.

"شوفي، أنا عندي السكر. لا أعرف إن كنت تعرفين أحدا مصابا بالسكر، لكن الحقيقة أننا حينما نجوع لا بد أن نأكل. وإلا يختل النظام كله. كان لا بد أن آكل قبل أن آتي إلى هنا، لكنني كنت في عجلة من أمري. عندك مانع أن أجلس؟"

كان جالسا بالفعل إلى مائدة المطبخ.

"عندك قهوة؟"

"عندي شاي، شاي عشبي، لو يعجبك".

"أكيد، أكيد"

وضعت الشاي في المصفاة، وأوصلت كهرباء الغلاية، وفتحت الثلاجة.

قالت "ليس عندي الكثير. عندي بيض. أحيانا أخفق بيضة مع الكاتشب. يعجبك هذا؟ عندي بعض الكعك الإنجليزي يمكن أن أسخنه".

"إنجليزي- أيرلندي، أوكراني، ولا يفرق".

كسرت بيضتين في طاسة، وراحت تقلّب بشوكة خشبية، ثم قطعت كعكة إلى شرائح ووضعتها في الفرن. أحضرت طبقا من الخزانة، وضعته أمامه، ثم سكينة وشوكة من درج الملاعق.

قال "طبق جميل"، ورفعه ليرى انعكاس وجهه فيه. وما إن عادت تنتبه إلى البيض على النار حتى سمعت الطبق يتهشم على الأرض.

قال بصوت جديد، مزعج بلا شك، وفيه ما يشبه الصرير "أوه، رحماك. انظري ماذا فعل خطئي وخرقي".

قالت "لا بأس". فما حدث حدث.

"لا بد أنه أفلت من بين أصابعي".

أحضرت طبقا آخر، ووضعته على طاولة الطبخ إلى أن تسخن الكعكة ويستوي البيض ومن فوقه الكاتشب.

بينما كان هو منحنيًا يلملم كسر الصيني المكسور. أمسك قطعة ذات طرف حاد. وبينما كانت تضع له طعامه على المائدة، كان يخدش بطن ساعده العاري بالسن. ظهرت قطرات دم ضئيلة، متفرقة في البداية، ثم تقاطرت معا في خيط متصل.

قال "لا مشكلة. مجرد لعب. أعرف كيف ألعب بمثل هذه الطريقة. لو أردت أن أكون جادا، لما كنا احتجنا إلى الكاتشب، صح؟"

كانت لا تزال على الأرض قطع لم يلملمها بعد. استدارت تفكر أن تحضر المقشة الموضوعة في خزانة قرب الباب الخلفي. وفي لحظة أمسك ذراعها.

قال "اجلسي. اجلسي هنا وأنا آكل". ورفع الذراع الدامي يريه لها مرة أخرى. ووضع البيض بين شرائح الكعك والتهمها جميعا في قضمات قليلة. وراح يمضغ وفمه مفتوح، بينما الغلاية تغلي.

قال "كيس الشاي في الفنجان؟"

"نعم. في الحقيقة، هو شاي سائب".

"لا تتحركي. لا أريدك قريبة من هذه الغلاية".

صب الماء المغلي عبر المصفاة في الفنجان.

"شكله يشبه القش. هذا كل ما لديك؟"

"أنا آسفة. نعم".

"لا تقولي ثانية أنا آسفة هذه. لو أن هذا كل ما لديك، فهذا كل ما لديك، أنت لم تكوني تعلمين أنني سآتي للكشف عن علبة المحولات، صحيح؟"

قالت نيتا "صحيح، صحيح، لم أكن أعلم"

"الآن تعلمين. خائفة؟"

رأت أن تعتبر هذا سؤالا حقيقيا وليس سخرية.

"لا أعرف. ربما مأخوذة أكثر مني خائفة. لا أعرف".

"شيء واحد. شيء واحد لا ينبغي أن تخافي منه. أنا لن أغتصبك".

"لا أظنني فكرت في هذا".

"لا، لا، تأكدي من هذا تماما". أخذ رشفة شاي، وبدا الأثر على وجهه. "فقط لأنك ست عجوز. والأنواع كلها معروضة في الخارج، ويفعلونها بأي شيء. الأطفال أم الكلاب، القطط أم العجائز. والرجال العجائز. لا يهيجون بسرعة. حسن، أنا كذلك. لست أطلب هذا بأي طريقة، بل بطريقة طبيعية

ومع ست لطيفة أعجبها. ارتاحي إذن".

قالت نيتا "شكرا لك أن عزّفتني".

رفع كتفيه، وإن بدا راضيا عن نفسه.

"سيارتك هذه التي أمام البيت؟"

"سيارة زوجي".

"زوجك؟ أين هو؟"

"مات. وأنا لا أسوق. كنت سأبيعها، لكن لم يحدث".

يا لها من حمقاء، يا لها من حمقاء فتخبره بهذا.

"٢٠٠٤؟"

"أظن نعم".

"لوهلة ظننت أنك ستجربين التلاعب بي بحكاية زوجك. ما كان لينفع على فكرة. أنا أشم المرأة حين لا يكون معها أحد. أعرفها لحظة أن أضع قدمي في البيت. لحظة أن تفتح الباب. غريزة. شغالة، هه؟ تعرفين آخر مرة ساقها فيها؟"

"سبعة يونيو. يوم موته".

"فيها غاز؟"

"أظن ذلك"

"يكون لطيفا لو كان ملأها من قبل. معك المفاتيح؟"

"ليس الآن. لكن أعرف أين هي".

"أوكيه" ودفع الكرسي إلى الوراء مصطدمًا بإحدى قطع الصيني. وقف، واهتز رأسه كما لو كان مندهشا، ثم جلس.

"أنا منهك. لا بدّ أن أجلس قليلا. فكرت أني سأكون أحسن حينما آكل. حكاية السكر هذه أنا ألفتها حالا".

تحركت في مقعدها فوثب.

"ابقي حيث أنت. أنا لست منهكا لدرجة ألا أقدر عليك. الأمر فقط أنني كنت أمشي طول الليل".

"كنت سأحضر المفاتيح".

"تنتظرين مني أن أقول. أنا مشيت السكة الحديدية كلها. ولم أر قطارا واحدا. مشيت طول الطريق إلى هنا ولم تقع عيناي على قطار".

"القطارات نادرة جدا".

"أيوه، أحسن. سرت مع الطريق حول بعض المدن الخربة. ثم طلع النهار وأنا لا أزال بخير، إلا حينما كان المصرف يقطع الطريق فكنت آخذها جريا. ثم نظرت هنا ورأيت البيت والسيارة وقلت لنفسي "هي هذه". آخذ سيارة العجوز ، وكان لا يزال في رأسي قليل من العقل".

عرفت أنه يريدها أن تسأله عما فعله. وعرفت أيضًا أنه كلما قل ما تعرفه كان خيرا لها.

ثم حدث لأول مرة منذ دخوله البيت أن فكرت في سرطانها. فكرت كيف أنه حررها وجعلها أعلى من الخطر.

"ما الذي يجعلك تبتسمين؟"

"لا أعرف. هل كنت أبتسم؟"

"يهيأ لي أنك تحبين الحكايات. تريدين أن أحكي لك قصة؟"

"أفضل أن تمشي".

"سأمشي. لكن أولا أحكي لك قصة".

وضع يده في جيب خلفي. "هنا. أترين الصورة؟ هنا".

كانت صورة فتوغرافية لثلاثة أشخاص، التقطت في غرفة معيشة، وخلفيتها ستائر ذات زهور. رجل عجوز، ليس عجوزا للغاية، ربما في الستينيات، وامرأة في مثل العمر تقريبا، جالسان على كنبة. وامرأة أصغر منهما وشديدة الضخامة على مقعد متحرك قريب من أحد طرفي الكنبة، ومتقدم عنها قليلا. كان الرجل العجوز ثقيلا، أشيب الشعر، ضيق العينين، منفتح الفم قليلا، كما لو كان عنده ربو، لكنه مبتسم على أفضل نحو ممكن. والمرأة العجوز أصغر منه كثيرا، بشعر مصبوغ بالبني وطلاء على

الشفتين، ترتدي ما كان يقال له بلوزة فلاحي، عليها قليل من الثنيات الحمراء عند المعصمين والرقبة. تبتسم بإصرار، ربما بشيء من الجنون، وشفتاها ممطوطتان فوق سِنّة تبدو مسوّسة.

ولكن المرأة الأصغر هي التي كانت تحتكر الصورة. ضخمة ووحشية في ثوب لامع، شعرها مرفوع إلى أعلى وخصلات منه تتماوج على جبهتها، وجنتاها تتهدلان إلى رقبتها. وعلى الرغم من كل هذا الفيض من اللحم، ثمة تعبير عن الرضا والمكر.

"هذه أمي، وهذا أبي، وهذه أختي مادلينا، في المقعد المتحرّك. وُلدَت هكذا. لم يكن لطبيب أو لأحد أن ينفعها بشيء. وتأكل كالخنزير. طول عمرنا وبيني وبينها مشاعر عدوانية. كانت أكبر مني بخمس سنوات وكانت تعذبني تعذيبا. ترميني بأي شيء تجده في يدها وتطرحني أرضا، ثم تحاول أن تجري فوقي بمقعدها المتحرك اللعين. اغفري لي لغتي".

"لا بدّ أن ذلك كان صعبا عليك. وعلى أبويك".

"هه. فكرا في الأمر وأخذاها. وذهبا إلى كنيسة فقال لهما القسيس إنها هدية من الرب. أخذاها إلى الكنيسة فراحت السافلة تعوي في فنائها الخلفي مثل قطة سافلة فيقولون 'أوه، إنها تحاول أن تصدر موسيقى' ربنا يبارك في سفالة أهلها. أنا آسف مرة ثانية".

"لذلك لم أكن حريصا قط على القعود في البيت، فاهمة. خرجت أجد حياتي. ولا بأس بهذا، فأنا أقول أخرج لأجد حياتي لا لأتجول في الخراء. عثرت على عمل. تقريبا عثرت على عمل. عمري ما جلست على مؤخرتي سكران أو معتمدا على فلوس الحكومة. بذراعي، فاهمة. عمري ما طلبت قرشا من العجوز. كنت أقوم فأطلي سطحا بالقطران في درجة حرارة تسعين، أو أمسح البلاط في مطعم منتن، أو أعمل ميكانيكيا في أي جراج عفن. كنت أفعل أي شيء. ولكنني لم أكن أحتمل خراءهم طويلا، فلم أكن أطيل كثيرا. ذلك الخراء الذي يمنحه الناس عادة لأمثالي، ولم أكن أحتمل. أنا طالع من بيت محترم. ظل أبي يعمل إلى أن أنهكه المرض ـ كان يعمل على الأوتوبيسات. لم أنشأ على احتمال الخراء. أوكيه، ومع ذلك، لكن دعك من هذا. الذي كان أبواي يقولانه لي دائما هو 'البيت بيتك. البيت ثمنه مدفوع بالكامل، وحالته جيدة، وهو بيتك'. ذلك ما كانا يقولان لي. "نحن نعرف أنك تعبت هنا وأنت صغير، ولو لم تكن تعبت لكنت تعلمت، ونحن نريد أن نعوضك قدر ما نستطيع". ومنذ فترة غير بعيدة كنت أكلم أبي

على الهاتف فقال لي 'أنت طبعا تفهم الصفقة؟" فقلت له "أي صفقة؟" قال "مجرد أن توقع الورق بأنك المسئول عن رعاية أختك طالما هي حية. البيت بيتك طبعا والبيت بيتها أيضًا".

"يا ربنا. عمري ما سمعت ذلك من قبل. عمري ما سمعت بتلك الصفقة من قبل. كنت دائما أتصور أن الصفقة هي أن تذهب هي بعد موتها إلى دار، ولا تكون هذه الدار بيتي أنا".

"فقلت للعجوز إنني لم أفهم الأمر بتلك الطريقة. فقال إن "كل الورق جاهز لك على التوقيع، وإذا لم تشأ أن توقعه لن يرغمك أحد. إذا وقعته، خالتك ريني ستكون قريبة منك تراقب مدى التزامك به". أيوه أيوه، خالتي ريني. هذه أصغر شقيقات أمي، وسافلة رسمي. عمومًا، قال خالتك ريني ستراقبك" وقلبت فجأة. قلت "طيب، أظن الأمر في غاية الإنصاف هكذا. أوكيه أوكيه. هل يناسبكم أن أمرّ للعشاء يوم الأحد؟" قال "أكيد. أنا سعيد أنك أصبحت تتعامل بالطريقة السليمة. كنت من قبل تخربها بسرعة. لكن في سنك هذه، ينبغي أن يكون عندك دم فعلا" قلت "ظريف منك أن تقول هذا".

"وذهبت، وكانت ماما قد طبخت دجاجة. شممت رائحة طيبة فور أن دخلت البيت. ثم شممت رائحة مادلين. هي هي نفس رائحتها القديمة الرهيبة. لا أعرف لها سببا، لكن رغم أن ماما تحممها كل يوم تبقى الرائحة موجودة. ومع ذلك تصرفت بمنتهى اللطف. قلت "هذه مناسبة خاصة، ولا بدّ أن ألتقط صورة". قلت لهم إن عندي كاميرا جديدة رائعة تخرج منها الصورة فورا فيرونها. "بمجرد أن تضغط على الزر، ترى الصورة. ما رأيكم في هذا؟" وجعلتهم يجلسون في الغرفة الأمامية كما أريتهم لك. تقول ماما "بسرعة، لا بدّ أن أرجع إلى المطبخ"، أقول "ثوان" وألتقط الصورة، فتقول "تعال أرنا الآن الصورة"، وأقول "اصبري لحظة. تحتاج دقيقة لا أكثر". وبينما هم منتظرون أسحب مسدسي الصغير اللطيف وطاخ طيخ طوخ فيهم الثلاثة".

"ثم التقطت صورة أخرى، ودخلت المطبخ، فالتهمت الدجاجة ولم أعاود النظر إليهم. وكنت أتوقع بشكل ما أن تكون خالتي ريني موجودة، لكن ماما قالت إنها تعمل شينا في الكنيسة. كان لا بدّ أن أقتلها هي الأخرى بالسهولة نفسها".

"انظري هنا. قبل وبعد".

رأس الرجل مائلة على الجنب، ورأس الأم إلى الخلف. والبنت واقعة إلى الأمام، وتعبيراتهم جميعا مبددة. الأخت بالذات كانت رأسها واقعة إلى الأمام فلم يكن ثمة وجه يمكن النظر إليه، ليس إلا الركبتان في الفستان ذي الزهور والشعر الأسود ذي التسريحة المتكلفة القديمة.

"كان يمكن أن أبقى هناك أسبوعا ولا يهمني. كنت في منتهى الارتياح. لكنني لم أبق إلى الظلام. تأكدت من نظافتي وأجهزت على المطبخ، وعرفت أنه من الأفضل لي أن أذهب. كنت مستعدا لأن تدخل خالتي ريني، لكني كنت قد خرجت من الحالة التي كنت فيها وعرفت أنني سأضطر أن أرغم نفسي على قتلها. ولم أشعر بمزيد من الرغبة في ذلك. أمر واحد، أن بطني كانت ممتلئة تماما. كانت دجاجة كبيرة، وأكلتها كلها بدلا من أن أحملها معي، لأنني خفت أن تشمها الكلاب وتقرفني وأنا سائر في الشوارع الخلفية حسبما فكرت أن أفعل. ظننت أن الدجاجة بداخلي سوف تكفيني أسبوعا. لكن انظري كم كنت جائعا حينما دخلت عليك".

ألقى نظرة على المطبخ "لا أظن أن لديك شيئا يشرب هنا، صح؟ الشاي كان رديئا جدا".

قالت "ربما هناك بعض النبيذ. لا أعرف. أنا لم أعد أشرب".

"أنت من دعاة مكافحة الكحوليات؟"

"لا. الأمر أنه لا يتوافق معي".

قامت فوجدت ساقيها ترتعشان. طبعا.

قال "أنا توليت أمر خط التليفون قبل أن أدخل. قلت قد تحبين أن تعرفي".

هل يفقد انتباهه، ويصبح أكثر لينا حينما يشرب، أم يزداد جموحا ووضاعة؟ أنى لها أن تعرف؟ عثرت على النبيذ دونما حاجة للخروج من المطبخ. كانت هي وريتش يشربان النبيذ كل يوم، بكميات معقولة، إذ يفترض أنه جيد للقلب. أو سيء لشيء ليس جيدا بالنسبة للقلب. وهي في غمرة الارتباك والرعب لم تكن قادرة أن تعرف أي الأمرين بالضبط هو الصحيح.

لأنها كانت مرعوبة. مؤكد. سرطانها لم يكن ليعينها مطلقًا في اللحظة الراهنة، على الإطلاق. حقيقة أنها مقدر لها الموت في غضون سنة أبت أن

تطغى على حقيقة أنها قد تموت الآن.

قال "هيه، هي هذه الزجاجة الصحيحة. أليست لديك فتاحة؟"

تحركت إلى درج الملاعق، لكنه قفز فأزاحها، بغير كثير من العنف.

"أوأو، أنا أحضرها. أنت ابتعدي عن الدرج. يا إلهي، عندك أشياء كثيرة جيدة هنا".

وضع السكاكين على مقعده حيث لا يمكنها أن تطولها، واستخدم الفتاحة التي رأت كيف يمكن أن تكون أداة فاعلة وهي في يده، دون أن يكون هناك أدنى احتمال للخطورة لو كانت هي التي تستخدمها.

قالت "سأقوم لأحضر كأسين" لكنه قال "لا".

"كأس لا. عندك أكواب بلاستيكية؟"

"لا"

"إذن فناجين. أنا أراك".

وضعت فنجانين وقالت "قليل جدا لي".

قال "ولي. لزوم الشغل. سأضطر أن أسوق". لكنه ملأ فنجانه حتى الحافة. "لا أريد أن يدس عسكري رأسه ليرى كيف أبدو".

"قالت "شوارد حرة"

"وما المفروض أن يعنيه هذا؟"

"أشياء يفعلها النبيذ الأحمر. إما أنه يدمرها لأنها سيئة، وإما يكوّنها لأنها جيدة، لا أتذكر".

احتست رشفة من النبيذ فلم تجعلها تشعر بالغثيان كما كانت تتوقع. وشرب وهو لم يزل واقفا. قالت "احذر السكاكين وأنت تجلس".

"لا تبدئي المزاح معي".

لملم السكاكين وأعادها إلى الدرج ثم جلس.

"تظنين أنني غبي؟ تظنين أنني عصبي؟"

وجدت الفرصة سانحة فقالت "أنا فقط لا أظن أنك فعلت شيئا كهذا

من قبل".

"طبعا لم أفعل. تظنين أنني قاتل؟ صحيح أنا قتلتهم، لكنني لست قاتلا".

قالت "هناك فرق".

"طبعا".

"أعرف هذا الأمر. أن يتخلص الواحد من أناس آذوه"

"صحيح؟"

"أنا فعلت نفس الشيء الذي فعلته أنت".

"لا يمكن" ودفع كرسيه إلى الوراء لكنه لم يقم.

قالت "لا تصدقني إذا شئت ألا تصدقني. لكنني فعلت".

"لا يمكن! فعلت هذا؟ كيف إذن؟"

"السم".

"عن أي شيء تتكلمين؟ جعلتيهم يشربون بعض هذا الشاي اللعين أم ماذا؟"

"لم يكونوا جمعا. كانت واحدة. والشاي ليس فيه أي مشكلة. المفروض أنه يطيل العمر".

"لا أريد لحياتي أن تطول إذا كان معنى هذا أن أشرب هذا القرف. ولكن من الممكن اكتشاف السم في الجثة بعد الوفاة، أليس كذلك؟"

"لا أعرف إن كان الأمر كذلك بالنسبة للسموم النباتية. عموما، ما كان أحد ليفكر في الفحص. كانت واحدة من البنات اللاتي تصيبهن الحمى الروماتيزمية في الطفولة، وتبقى فيهن، فلا يستطعن ممارسة الرياضة أو فعل أي شيء، ويؤثرن دائما الجلوس والراحة. موتها لم يكن مفاجأة من أي نوع".

"وما الذي فعلته لك؟"

"هي البنت التي وقع زوجي في غرامها. كان سيتركني ويتزوجها. هو قالها لي فعلا. فعلت لأجله كل شيء. كنا نعمل في هذا البيت معا. لم يكن

لي غيره. لم يكن لدينا أطفال، لأنه لم يرد أن يكون لديه أطفال. تعلمت النجارة، وكنت أخاف أن أطلع السلم المنفرد لكنني صرت أصعده. كان كل حياتي. وكان يوشك أن يطردني من أجل تلك الكلبة التافهة التي كانت تعمل في مكتب مسجل الجامعة. كل شيء عملناه معا كان يوشك أن يقع بين يديها هي. هل كان ذلك عدلا؟"

"وكيف يحصل الواحد على السم؟"

"لم أسع إلى الحصول عليه. كان موجودا فعلا في الحديقة الخلفية. هنا. قطعة أرض فيها الراوند منذ سنين. وفي أوردة ورق الراوند قدر كاف تماما من السم. ليس السيقان، السيقان هي التي نأكلها، ولا بأس بها، لكن في العروق الحمراء الصغيرة التي تتخلل الورق، هذه سامة. كنت أعرف هذا لكنني لم أكن أعرف القدر الفعال بالضبط، فما قمت به كان أقرب إلى طبيعة التجارب. وصادفني الحظ في أشياء عديدة. أولا، غياب زوجي في سمبوزيوم في مينوبوليس. طبعا كان العادي أن يصطحبها معه، لكنها كانت إجازة الصيف، وكان لا بدّ أن تبقى لتدير المكتب. وشيء آخر، كان يمكن ألا تكون وحدها تماما. كان يمكن أن يكون على مقربة منها شخص آخر. وكان يمكن أن ترتاب فيّ. وكان لا بدّ أن أفترض أنها لا تعرف أنني أعرف. لقد جاءت إلى العشاء في بيتنا، وكنا ودودين معها تماما. كان لا بدّ أن أعتمد على أن زوجي من النوع الذي يؤجل كل شيء، فهو قد يحكي لي ليرى رد فعلي ولكن دون أن يخبرها أنه أخبرني. والآن تقول: ولماذا التخلص منها وزوجي ربما كان في وقتها لا يزال يفكر في البقاء معي؟ لا. ثم إنه كان سيحتفظ بها بطريقة أو بأخرى. وحتى إذا لم يفعل، حياتنا كانت تسممت بسببها. هي سممت حياتي، فسممت حياتها.

"أعددت كعكتين. واحدة فيها السم والأخرى خالية. وسقت السيارة إلى الجامعة فاشتريت فنجاني قهوة وتوجهت إلى مكتبها. لم يكن هناك غيرها. قلت لها إنني جئت إلى المدينة، وبينما كنت أمرّ بالحرم رأيت ذلك الفرن الصغير اللطيف الذي كان زوجي يتكلم عنه دائما، فدخلت واشتريت كعكتين وفنجاني قهوة. وكنت أفكر في أنها وحدها تماما لأن الجميع ذهبوا إلى إجازاتهم، وفي أنني أيضًا وحدي تماما وقد ذهب زوجي إلى مينوبوليس. كانت رقيقة وممتنة. قالت إن الوجود في المكتب ممل جدا، والكافيتريا مغلقة، وإنها لا بدّ أن تذهب إلى مبنى كلية العلوم لتشتري قهوة وهنالك يضعون في قهوتهم حمض الهيدروكلوريك. هه‍أو. وأقمنا حفلتنا".

قال "إنني أكره الراوند. ما كان لينفع في حالتي".

"نفع معها. كان ينبغي أن أغامر وأفترض أنه سيعمل بسرعة قبل أن تكتشف أن هناك شيئا فتعمد إلى إفراغ معدتها. لكن ليس بسرعة أكبر من اللازم فتربط الأمر بي. كان ينبغي أن أكون قد ابتعدت، وذلك ما كان. كان المبنى خاليا، وفي حدود ما أعلم إلى يومنا هذا، لم يرني أحد حينما وصلت ولا حينما مشيت. طبعا كنت أعرف بعض الطرق الخلفية".

"تظنين أنك ذكية. ترحلين دون أن تدفعي الثمن".

"ولكن هذا ما فعلته أنت".

"ما فعلته أنا لم يكن في دهاء ما فعلته أنت".

"كان لازما لك".

"اكيد كان كذلك".

"وما فعلته كان لازما لي. حافظت به على زواجي. والذي حدث أنه اكتشف على أي حال أنها لم تكن مناسبة له. كانت لتقرفه. مؤكد. نوعيتها كانت هكذا. ما كانت لتكون إلا حملا عليه. وهو فهم هذا".

قال "يستحسن ألا تكوني قد وضعت شيئا في البيضتين. لو كنت فعلت ستندمين".

"لم أضع شيئا طبعا. ذلك شيء لا يفعله أحد عمال على بطال. وأنا لا أقضي أيامي في سم الناس. الأمر أنني بالمصادفة كانت عندي تلك المعلومة".

وقف بغتة لدرجة أنه أوقع كرسيه. لاحظت أنه لم يبق في الزجاجة الكثير.

"أحتاج مفاتيح السيارة".

للحظة عجزت عن التفكير.

"مفاتيح السيارة. أين تضعينها؟"

يمكن أن يحدث. يمكن أن يحدث، بمجرد أن تعطيه المفاتيح. هل سيفيد في شيء لو أخبرته أنها ستموت بالسرطان عما قريب؟ يا للغباء. طبعا لن يفيد في أي شيء. الموت في المستقبل لن يمنعها من الكلام الان.

قالت "لا أحد يعرف ما قلته لك. أنت الوحيد الذي حكيت له".

وهذا أيضًا قد لا يكون له نفع. يمكن جدا للميزة التي عرضت عليه أن تعبر به فلا ينتبه إليها.

قال "لا أحد يعرف **حتى الآن**" فقالت لنفسها الحمد لله، إنه على المسار الصحيح. لقد فهم. ترى فهم؟

احتمال كبير أن يكون الحمد لله.

"المفاتيح في الإبريق الأزرق".

"أين؟ أين الإبريق الأزرق اللعين؟"

"على آخر الطاولة، انكسر غطاؤه فرحنا نستخدمه كما ترى بأن نضع فيه".

"اخرسي. اخرسي وإلا أخرستك إلى الأبد". حاول أن يضع قبضته في الإبريق الأزرق فلم يستطع. "لأ لأ لأ" وقلب الإبريق وهبده على الطاولة فلم تخرج فقط مفاتيح السيارة ومفاتيح البيت والعديد من العملات ورزمة الفلوس الكندية القديمة لتقع على الأرض، بل وتناثرت أيضًا قطع من الخزف الأزرق.

قالت بصوت خافت "ذات الحلقة الحمراء".

أخذ يطيح بقدمه بالأشياء لوهلة قبل أن يعثر على المفاتيح.

قال "وماذا ستقولين عن السيارة؟ أنك بعتها لغريب، صح؟"

للحظة لم تستوعب مغزى السؤال، فلما استوعبته كانت الغرفة ترتعش. كانت تقول "شكرا" لكن حلقها كان جافا فلم تدر إن كان قد خرج منه صوت.

لكن، لا بدّ أنها نطقتها. "لا تشكريني الآن. أنا ذاكرتي حديد. ولا أنسى مهما حدث. اجعلي هذا الغريب لا يشبهني في شيء. أنت لا تريدينهم أن يذهبوا لينبشوا الأرض ويستخرجوا الجثة. وتذكري، كلمة تطلع من فمك، كلمة تطلع من فمي أنا أيضًا".

ظلت تنظر إلى الأرض. لا تتحرك ولا تتكلم. فقط تنظر إلى ما على الأرض من فوضى.

ذهب. الباب أغلق. ومع ذلك لم تتحزك. أرادت أن توصد الباب، لكن لم تستطع أن تتحرك. سمعت المحرك يدور. ثم يموت. ماذا جرى؟ كان في غاية العصبية، يخطئ في كل شيء، ومرة أخرى، يدير المحرك، يديره، يديره، يدور، صوت الإطارات على الحصى. مشت وهي ترتعش إلى التليفون فوجدت أنه قال الحقيقة: التليفون ميت.

بجانب التليفون واحد من صناديقهم الكثيرة. في هذا الصندوق كتب قديمة، كتب لم تفتح منذ سنين. كان هناك "برج العزة" لـ ألبرت شبير، من كتب ريتش، "احتفاء بالثمار والخضراوات العادية"، "أطباق رشيقة وحماسية ومفاجآت طازجة" جمعتها وتذوقتها واخترعتها "بيت أوندرهيل".

ما كاد ريتش ينتهي من المطبخ، حتى اقترفت نيتا خطأ محاولة تقليد "بيت" في الطبخ. ولكن لفترة قصيرة بعض الشيء، فريتش لم يكن يريد أن يتذكر كل تلك الضجة، وهي نفسها لم يكن لديها الصبر اللازم للتقطيع والسلق. لكنها تعلمت أشياء بسيطة أدهشتها هي شخصيا. مثل التأثيرات السامة لبعض النباتات العادية المألوفة.

أرادت أن تكتب لـ بيت.

"عزيزتي بيت، ريتش مات، وأنت أنقذت حياتي حينما جعلت مني أنت".

ولكن فيم تبالي بيت بحياتها؟ لم يكن هناك غير شخص واحد يستحق أن تخبره بالذي حدث.

ريتش. ريتش. الآن تعرف ما معنى افتقاده. كأنما نفد هواء السماء.

قالت لنفسها إن بوسعها المشي إلى القرية. هناك قسم الشرطة وراء مجلس البلدية.

ينبغي أن يكون لديها تليفون محمول.

لكنها كانت مهتزة بعمق، ومنهكة لا تكاد تقوى أن تحرّك قدما. عليها أولا وقبل كل شيء أن تستريح.

أيقظها طرق على بابها غير الموصد بعد. كان شرطيا. ليس من القرية بل من شرطة المرور الإقليمية، سألها إن كانت تعرف أين سيارتها الآن.

نظرت إلى ساحة الحصى حيث كانت السيارة مركونة وقالت "اختفت. كانت هنا".

"أما كنت تعرفين أنها سرقت؟ متى كانت آخر مرة رأيتها؟"

"لا بدّ أن ذلك كان ليلة أمس".

"كانت المفاتيح فيها".

"أظن ذلك".

"يؤسفني أن أخبرك أنها تعرضت لحادث سيء. هو حادث السير الوحيد في هذه الناحية من وولنشتين. انقلب السائق بها في القناة فأجهز عليها. وليس ذلك كل ما في الأمر. اتضح أنه مطلوب في جريمة قتل ثلاثية. هذا آخر ما سمعناه. جريمة قتل في ميتشلستن. أنت محظوظة أنك لم تقابليه".

"وأصيب؟"

"مات على الفور. جزاء وفاقا".

وأعقبت ذلك محاضرة حازمة وطيبة. ترك المفاتيح في السيارة. امرأة تعيش وحدها. في هذه الأيام يحدث ما لا يمكن تصوره.

ما لا يمكن تصوره.

كان على دوري أن تستقلّ ثلاث حافلات، واحدة إلى كينكاردين، التي انتظرت فيها حافلة أخرى إلى مدينة لندن في أونتاريو، وهناك انتظرت مرة ثانية الحافلة المتجهة إلى المؤسسة. بدأت الرحلة في التاسعة من صباح يوم أحد، وبسبب فترات الانتظار بين الحافلات، استغرقت حتى الثانية ظهرا لتقطع المائة ميل ونيفا. ولكن كل ذلك الجلوس، سواء في الحافلات أو المحطات، لم يكن بالشيء الذي تبالي به، وهي التي لم يكن عملها اليومي من النوع الذي يستوجب الجلوس.

كانت تعمل في خدمة الغرف في "كومفورت إن". تدعك الحمامات وترتب الأسرَّة وتكنس السجاجيد وتمسح المرايا. وكانت تحب ذلك العمل، الذي يستولي على تفكيرها إلى درجة معينة، ويهلكها فتستطيع أن تنام بالليل. ونادرا ما صادفت فوضى فظيعة حقا، ولكن بعض النساء اللاتي كن يعملن معها لهن حكايات يقف لها شعر رأسك. كن أكبر سنا منها، وكلهن كن يرين أن عليها أن تحاول الترقي في عملها، ويقلن لها إنها ينبغي أن تتدرب لتحصل على وظيفة على مكتب، بما أنها لا تزال شابة وحلوة. ولكنها كانت راضية بعملها، ولم تكن ترغب في عمل تتكلم فيه مع أحد.

لم يكن أي ممن تعمل معهم يعرف شيئا عما جرى. ومن يعرف لا يظهر معرفته. صورتها ظهرت في الجرائد. الجرائد نشرت الصورة التي التقطها لها مع الأطفال الثلاثة: المولود الجديد ديمتري على ذراعها، وباربرا آن وساشا على جانبيها، ناظرون جميعا أمامهم. كان شعرها أيامها طويلا، متماوجا، بنيا، طبيعيا في لونه وفي تموجه، وذلك شيء كان يحبه فيها، وكان في وجها حياء وليونة ـ ولم يكن ذلك انعكاسا لطبيعتها بقدر ما هو انعكاس للطريقة التي يحب أن يراها عليها.

منذ ذلك الحين، قصت شعرها، وجعلته سبايكي بدلا من تماوجه القديم، وصبغته بلون أفتح، وفقدت الكثير من وزنها. وصارت الآن تستخدم اسمها الثاني "فلور". كما كانت الوظيفة التي وجدوها لها، تقع في بلدة بعيدة عن المكان الذي كانت تعيش فيه من قبل.

وتلك كانت ثالث مرة تقوم فيها بهذه الرحلة. في المرتين الأوليين رفض مقابلتها. ولو كررها فإنها سوف تتوقف عن المحاولة. ولو قابلها، فربما لفترة لا تأتي مرة أخرى. فهي لم تكن تنوي أن تتمادى. خاصة وأنها لم تكن تعلم فعلا ما الذي توشك أن تفعله.

في الحافلة الأولى لم تكن منزعجة للغاية. فقط جالسة تنظر من الشباك، هي التي نشأت على الساحل، حيث ثمة ما يعرفه الناس بالربيع، أما هنا، فيهجم الشتاء في أعقاب الصيف مباشرة. منذ شهر واحد كان الجليد كاسيا، والآن يسمح الحر بتعرية الذراعين. في الحقول مساحات من المياه تبهر العيون، والشمس تصب نورها عبر غصون جرداء.

في الحافلة الثانية بدأت أعصابها تهتاج، ولم تستطع منع نفسها من تخمين أي النساء من حولها قد تكون ذاهبة إلى نفس المكان. كن نساء وحيدات، يعتنين في العادة بما يرتدينه، عسى أن يظهرن وكأنهن ذاهبات إلى الكنيسة. الكبيرات منهن كن يبدين وكأنهن في الطريق إلى كنائس من القديمة الأشد صرامة التي يلزمك فيها ارتداء جيبة وجورب وقبعة من أي نوع، أما الأصغر فيبدين منتميات إلى محافل أكثر حيوية تتقبل البذلة والبنطلون والأوشحة البراقة والأقراط وقصات الشعر الهائشة. ولكنك حينما تمعن النظر ترى أن من الصغيرات ذوات البدل من في كبر الأخريات.

ولم تكن دوري تناسب أيا من الفئتين. فهي على مدار عملها طوال فترة السنتين ونصف، لم تشتر لنفسها قطعة ثياب جديدة، وفي العمل ترتدي الزي الموحد، وفيما عداه الجينز. كانت في الأساس قد تخلّصت من عادة وضع الماكياج لأنه لم يكن يسمح به، والآن، وإن أمكنها، لا تضعه. وبات شعرها بقصّته الجديدة ولونه الفاتح كالذرة، غير مناسب لوجهها بارز العظام الخالي من المساحيق، ولكنها لا تهتم.

في الحافلة الثالثة، جلست على كرسي جنب الشباك، وحاولت أن تهدئ نفسها بقراءة اللافتات، الدعائية والإرشادية، سواء بسواء. وكانت قد ابتكرت عادة تشغل بها عقلها. تأخذ حروف أي كلمة تقع عليها عيناها، وترى كم كلمة جديدة يمكن أن تكوّنها منها. "قهوة" مثلا، يمكن أن تعطيك "قهوة" و"هو"، و"هوة"، و"قوة". و"دكان" تعطيك "كان" و"دان" و"دِنْ" و"كُن"، ولحظة واحدة، تعطيك "كاد" أيضًا، و"نكد"، والكلمات أوفر في الطريق الخارج من المدينة إذ تمر الحافلة باللوحات الإعلانية والمتاجر الضخمة ومواقف السيارات وحتى المناطيد المربوطة إلى الأسطح تعلن عن مواسم التخفيضات.

لم تخبر دوري السيدة صاندس عن محاولتيها السابقتين، وربما لن تخبرها بهذه المحاولة أيضًا. كانت السيدة صاندس ـ التي تقابلها عصر كل إثنين ـ تتكلم عن التجاوز، تجاوز الصدمة، وإن قالت دائما إنه يحتاج وقتا،

وإنها لا ينبغي أن تسبق الأحداث. كانت تقول لـ دوري إنها بخير، وإنها تدريجيا سوف تكتشف قوتها.

قالت "أنا عارفة أنها كلمات ابتذلت ابتذال الموت، لكنها لا تزال حقيقية".

خجلت السيدة صاندس مما قالته حتى احمرَّ خداها. الموت ـ ولكنها لم تزد الطين بلة بأن تعتذر.

عندما كانت دوري في السادسة عشرة ـ أي منذ سبع سنين ـ كانت تذهب كل يوم بعد المدرسة لتزور أمها في المستشفى، حيث كانت تقضي فترة نقاهة من جراحة في ظهرها، قيل إنها عملية كبيرة وإن لم تكن خطيرة. وكان لويد ممرضا، يشترك هو وأم دوري في ماض هيبي قديم ـ وإن يكن لويد أصغر بسنوات قليلة ـ فكان كلما زارها في المستشفى يدردش معها عن حفلات موسيقية أو مسيرات احتجاجية شاركا فيها، وعن المارقين الذين عرفاهم، وقعدات المخدرات التي كانت ترحل بهم إلى دنيا غير الدنيا، وهذه النوعية من الحواديت.

كانت لـ لويد جماهيرية بين المرضى بسبب نكاته، وبسبب لمسة من القوة واليقين. كان رجلا ربعة عريض الكتفين، فيه حسّ سلطوي يجعل البعض أحيانًا يتصورونه طبيبا. (ولم يكن طبعا سعيدا بهذا، فقد كان يرى أن الطب أكثره خداع والأطباء أغلبهم مقاطف). كانت له بشرة محمرة حساسة وشعر فاتح وعينان مقتحمتان.

قبّل دوري في المصعد وقال لها إنها زهرة في صحراء، ثم سخر من نفسه قائلا "يا ولد انت يا جامد!".

قالت تريد أن تكون لطيفة "أنت شاعر ولا تعرف".

وذات ليلة ماتت أمها بغتة نتيجة انسداد دموي. كانت لأم دوري صديقات كثيرات أردن أن يأخذن دوري لبيوتهن. وبقيت بالفعل مع إحداهن لفترة ـ ولكن الصديق الجديد لويد كان المفضل لدى دوري. فما حل عيد ميلادها التالي إلا وهي حامل، ثم تزوجت. ولم يكن لويد قد تزوج من قبل مطلقا، وإن كان لديه على الأقل طفلان لم يكن يعلم أين هما بالضبط في هذه الدنيا. وعموما لا بدّ أنهما في ذلك الوقت قد أصبحا كبيرين. تغيرت فلسفة لويد في الحياة مع كبره، بات يؤمن بالزواج والاستقرار وعدم تحديد النسل. ورأى أن شبه جزيرة سيتشليت ـ التي كان

يعيش فيها هو ودوري ـ مزدحمة بالكثير من الأصدقاء القدامى، وأنماط العيش القديمة، والعشيقات القديمات. فسرعان ما انتقل هو ودوري إلى الجهة الأخرى من البلد، في بلدة انتقياها من على الخريطة: ميلدماي، ثم إنهما لم يعيشا فيها نفسها، بل استأجرا بيتا في الريف القريب. وحصل لويد على وظيفة في مصنع آيس كريم، وزرعا الحديقة، فقد كان لويد على دراية كبيرة بالبستنة، ونجارة البيوت، وإصلاح المواقد، وتدوير سيارة قديمة.

وولد ساشا.

"**طبيعي** تماما"، هكذا قالت السيدة صاندس.

قالت دوري "بجد؟"

كانت دوري جالسة على مقعد مستقيم الظهر أمام المكتب، وليس على الكنبة ذات القماش المزهر والحشايا. حركت السيدة صاندس كرسيها إلى جانب المكتب، بحيث تتكلمان دون أن يكون بينهما أي نوع من الحواجز.

قالت "أنا كنت متوقعة منك أن تفعلي ما أظن أنني كنت لأفعله لو كنت مكانك".

لم تكن السيدة صاندس لتقول ذلك في أول الأمر. بل وكانت لتحرص أكثر من هذا منذ عام، علما منها بأن دوري يمكن أن تثور على فكرة أن يكون أحد، كائنا من كان، في مكانها. ولكنها الآن باتت تعرف أن دوري سوف تقبلها باعتبارها طريقة، بل وطريقة متواضعة، لمحاولة الفهم.

لم تكن السيدة صاندس مثل بعضهم. لم تكن سريعة الحركة، نحيلة، جميلة. وأيضا لم تكن كبيرة جدا. كانت في مثل عمر أم دوري تقريبا لو كانت قد عاشت، وإن لم يبد عليها مطلقا أنها كانت هيبية ذات يوم. كان شعرها الأشيب قصيرا، ولها خال يتوسط وجنتها. وترتدي أحذية مسطحة وبنطلونات فضفاضة وقمصانا مشجرة. وحتى حينما كانت القمصان تأخذ اللون النبيذي أو الفيروزي لم تكن تترك انطباعا بأن السيدة صاندس تبالي كثيرا بما ترتديه، بل كان يبدو وكأن شخصا ما قال لها إن عليها أن تهتم بمظهرها أكثر قليلا، فأطاعته وخرجت اشترت شيئا ظنت أنه سيؤدي الغرض. كانت رزانتها الطيبة الفياضة تبدّد أثر مرحها المهين، المسيء، المتجسد في هذه الثياب.

قالت دوري "حسن، في المرتين الأوليين لم أره مطلقا. لم يكن يخرج".

"وفي هذه المرة خرج؟ طلع لك؟"

"نعم، طلع. ولكنني أوشكت ألا أتعرف عليه".

"عجّز؟"

"أظن ذلك. أظنه نحل قليلا. وتلك الثياب. الزي الموحد. لم أره في شيء كهذا مطلقا".

"ألم يسبق له أن كان ممرضا؟"

"هناك فرق"

"بدا لك كما لو كان شخصا مختلفا؟"

"لا" وعضت دوري على شفتها تحاول أن تخفن الاختلاف بالضبط. كان في غاية السكون. لم يسبق أن رأته ساكنا هكذا. لم يبد عليه حتى أنه يعرف ما إذا كان ينبغي أن يجلس أمامها. كانت أولى كلماتها له "ألن تجلس؟" فقال "كله تمام؟"

قالت "بدا أشبه بالخاوي. فكرت أنهم جعلوه يتعاطى شيئا".

"ربما يعطونه شيئا لتهدئته. لكن إذا سمحت، أنا لا أعرف، هل دار بينكم حوار؟"

لم تكن دوري تعرف إن كان يمكنه تسميته بحوار. هي وجهت إليه بعض الأسئلة الغبية. كيف حاله؟ (أوكيه) هل يأكل كفايته؟ (يظن ذلك) هل هناك مكان يمكن أن يتمشى فيه لو أحب؟ (نعم، تحت إشراف. ونعم، تقدر أن تسميه مكانا. وتقدر أن تسميها تمشية).

كانت قد قالت "لا بدّ لك من هواء نظيف".

فقال "صحيح".

وسألته إن كان له أصحاب، مثلما يمكنك أن تسأل ابنك في أيامه الأولى بالمدرسة.

قالت السيدة صاندس "نعم، نعم" وهي تدفع علبة المناديل نحوها. ولم تكن دوري بحاجة، وعيناها جافتان. كانت المشكلة في قاع معدتها. رغبة

في التقيؤ.

تمهلت السيدة صاندس، وهي أكثر وعيًا من أن تتعجل.

قال لها لويد، كما لو كان يعلم ما توشك أن تقوله، إن هناك طبيبا نفسيا يأتي ليتحدث إليه بين الحين والآخر.

قال لويد "أقول له إنه يضيع وقته. فأنا أعرف قدر ما يعرف".

وتلك هي المرة الوحيدة التي بدا فيها لـ دوري أنه يشبه لويد الذي عرفته.

طوال زيارتها كان قلبها يدق. حتى أنها خشيت أن يغمى عليها أو تموت. كانت تبذل جهدا حقيقيا حتى تنظر إليه، حتى تضعه في نطاق بصرها، وما هو غير ذلك الرجل العجوز الأشيب الهزيل المهزوز البارد الذي يتحرك بآلية وبخرق!

لم تقل أيا من ذلك للسيدة صاندس. ولعل السيدة صاندس طرحت سؤالا تكتيكيا عمن كانت تخاف منه، منه أم من نفسها؟ لكنها لم تكن خائفة أصلا.

عندما بلغ عمر ساشا عاما ونصف العام، ولدت باربرا آن، وعندما بلغ عمر باربرا آن عامين، أنجبا ديمتري. اختارا معا اسم ساشا، ثم اتفقا على أن يختار هو أسماء الأولاد وتختار هي للبنات. كان ديمتري أول من يصاب لها بتقلصات البطن. ظنت دوري أنه ربما لا يحصل على كفايته من اللبن، أو أن لبنها ليس دسما بالقدر الكافي. أم أكثر دسامة مما ينبغي؟ وعموما، لم يحدث على الفور أن جاء لويد بسيدة من منظمة "لا ليش ليج" لتتكلم معها. قالت السيدة، مهما حدث، عليك ألا ترضعيه صناعيا. قالت، هذه ستكون البداية فقط، وبسرعة ستجدين أنه يرفض صدرك تماما. وكانت تتكلم وكأن هذه مأساة.

لم تكن السيدة تعرف أن دوري أصلا ترضعه صناعيا. وبدا صحيحا أنه يفضل زجاجة الرضاعة على ثديها الذي بات يفقد اهتمامه به أكثر فأكثر. وفي غضون ثلاثة أشهر كان لا يرضع إلا من الزجاجة، ولم يعد من الممكن حينئذ إخفاء الأمر عن لويد. قالت له إن لبنها جف وإنها اضطرت أن تلجأ إلى الرضاعة التكميلية. عصر لويد نهديها واحدا بعد الآخر بتصميم مسعور ونجح أن يستخرج قطرتي لبن بائستي المنظر. فقال لها إنها كذابة.

وتشاجرا. قال إنها فاجرة مثل أمها.

قال إن الهيبيات جميعا قحاب.

وتصالحا بسرعة. لكن كلما كان ديمتري يبدو نكد المزاج، أو يصاب بدور برد، أو يخاف من الأرنب الذي تلعب به أختاه، أو يبقى متشبثا في كرسيه وقد بلغ السن التي بدأ فيها أخوه وأخته المشي دون الاعتماد على شيء، كان الكلام يتجدد في مسألة الرضاعة الصناعية.

عندما ذهبت دوري إلى مكتب السيدة صاندس لأول مرة، أعطتها امرأة هناك كتيبا على غلافه صليب ذهبي وحروف أرجوانية: "حينما تبدو الخسارة لا تحتمل ..."، وبالداخل صورة ليسوع رقيقة الألوان وطباعة دقيقة لم تستطع دوري أن تقرأها.

في كرسيها المواجه للمكتب، وفيما لم تزل قابضة على الكتيب، بدأت دوري ترتعش. حتى اضطرت السيدة صاندس أن تنتزعه من يدها انتزاعا.

قالت السيدة صاندي "هل أعطاك أحد هذا؟"

قالت دوري "هي" والتفت برأسها إلى الباب المغلق.

"وأنت لا تريدينه؟"

قالت دوري "حينما تقعين يحاولون النيل منك"، ثم أدركت أن هذه جملة كانت أمها تقولها عندما تأتي لزيارتها في المستشفى نساء من ذوات الرسائل المشابهة. "يحسبن أنك ستخرين راكعة وكل شيء بعد ذلك سوف يكون على ما يرام".

تنهدت السيدة صاندس.

قالت "طيب. الأمر يقينا ليس بهذه البساطة".

قالت دوري "ولا هو حتى محتمل".

"ربما لا"

لم تتكلما قط عن لويد، في تلك الأيام. وما كانت دوري، لو استطاعت، لتفكر فيه أصلا، ثم إنها ما كانت لتفكر فيه إلا وكأنه بلوى رهيبة من بلايا الطبيعة.

قالت وهي تشير إلى الكتيب "وحتى لو كنت أومن بهذا الكلام، فلن

يكون ذلك إلا بهدف ..." وأرادت أن تقول إن إيمانا كهذا ما كان ليلائمها إلا لو أمكنها أن تفكر في لويد إذ يتقلب في نيران الجحيم، أو شيء من هذا القبيل، لكنها لم تقو على إكمال جملتها، لأنه أمر في منتهى الغباء، وبسبب عائق مألوف، كأنه مطرقة تدق بطنها.

رأى لويد أنه ينبغي تعليم أطفالهما في البيت. ولم يكن هذا لأسباب دينية ـ من قبيل الاعتراض على الديناصورات وإنسان الكهف والقردة وكل ذلك ـ بل لأنه أراد لهم أن يبقوا على مقربة من أبويهم وأن يتعرفوا على العالم تدريجيا وبحذر، بدلا من رميهم إليه مرة واحدة. قال "إنهم، بالمصادفة فقط، أبنائي، أعني أبناءنا، وليسوا أبناء وزارة التعليم".

لم تكن دوري واثقة من قدرتها على التعامل مع هذا الأمر، ولكن تبين أن لدى وزارة التعليم إرشادات، وخططا تدريسية يمكن الحصول عليها من المدرسة القريبة. كان ساشا ولدا ذكيا، استطاع عمليا أن يعلّم نفسه القراءة، والبنت والولد الآخران كانا لا يزالان أصغر من أن يتعلما أي شيء. في المساءات والإجازات الأسبوعية كان لويد يعلم ساشا الجغرافيا والنظام الشمسي وسبات الحيوانات وتشغيل السيارات، متناولا كل موضوع من هذه وفقا لما يخطر على بال الولد من أسئلة. وسرعان ما تقدم ساشا على المدرسة، لكن دوري كانت تلاحقهما بالتمارين والواجبات بحيث يبقى الولد ملتزما بالمنهج والقوانين.

كانت هناك أم أخرى في المنطقة تقوم هي الأخرى بالتدريس المنزلي، اسمها ماجي وعندها شاحنة صغيرة. ولأن لويد لم يكن ليستغني عن سيارته التي يذهب بها إلى عمله، ولأن دوري لم تكن تسوق، فقد فرحت باقتراح ماجي أن تقلها إلى المدرسة كل أسبوع لتسليم التمرينات المحلولة وتحصيل التمرينات الجديدة. وبالطبع كانتا تصطحبان معهما جميع الأطفال. كان لـ ماجي صبيان، الأكبر منهما عنده حساسيات كثيرة تضطرها إلى مراقبة كل ما ينزل بطنه، ولذلك لجأت إلى تعليمه منزليا. ثم بدا لها من الأصوب أن تستبقي الولد الأصغر في البيت هو الآخر، خاصة وأنه كان يريد البقاء مع أخيه، ثم إنه كان أيضًا مصابا بالربو.

كم كانت دوري سعيدة آنذاك حين تقارن ولدي ماجي بأولادها الثلاثة الأصحاء. قال لويد إن سبب ذلك أنها أنجبت أولادها وهي لا تزال صغيرة، في حين تمهلت ماجي إلى حين شارفت على انقطاع الطمث. كان يبالغ في تقدير سن ماجي، ولكنه كان محقا في أنها تمهلت. كانت تعمل طبيبة

عيون، وهي وزوجها كانا يعيشان معا، ولم يفكرا في تكوين أسرة إلا بعدما أمكنها أن تعتزل العمل وصار لهما بيت في الريف.

كان الشيب قدد ضرب شعر ماجي الأسود الذي لا يتجاوز رأسها. طويلة، ممسوحة الصدر، مبتهجة، وعنيدة. وكان لويد يسميها السحاقية. في غيابها فقط بالتأكيد. كان يمزح معها على الهاتف ثم يسرّ لـ دوري قائلا "الست السحاقية"، ولم يكن ذلك يضايق دوري، فقد كان يطلق هذا اللفظ على الكثيرات. ولكنها كانت تخشى أن يبدو مزاحه لماجي زيادة في التودد، أو تطفلا، أو على الأقل تضييعا للوقت.

"تريدين أن تكلمي العجوزة. أيوه، هي معي هنا. تدعك لي بنطلون الشغل طالعة نازلة نازلة طالعة. أنت عارفة، ليس لدي إلا هذا البنطلون. وعموما، أنا مؤمن أنها يجب أن تبقى مشغولة".

اعتادت دوري وماجي على تسوّق بقالتهما معا، بعد رجوعهما من المدرسة بورق التمارين. وفي بعض الأحيان كانتا تأخذان كوبي قهوة من تيم هورتنز وتذهبان بالأولاد إلى حديقة ريفرسايد بارك. فتجلسان على أريكة، ويمضي ساشا وولدا ماجي يتسابقون أو يتعلقون في ألعاب التسلق، وباربرا آن تتأرجح، وديمتري يلعب في صندوق الرمل. أو يجلسون في الشاحنة إن كان الجو باردا. كانتا في الغالب تتكلمان عن الأولاد، والأكلات، وبطريقة ما اكتشفت دوري أن ماجي طافت أوروبا قبل أن تدرس طب العيون، واكتشفت ماجي كم كانت دوري صغيرة حينما تزوجت، وكيف أنها كانت تحمل بسهولة في البداية، ثم لم يعد الأمر كذلك مما أثار ارتياب لويد، فبات يفتش أدراجها بحثا عن أقراص منع الحمل، متصورا أنها بالتأكيد تتناولها من وراء ظهره.

"وهذا صحيح؟" تساءلت ماجي

صعقت دوري. قالت إنها لا تجرؤ.

"قصدي، أظن أن هذا عمل رهيب، دون إخباره. تفتيشه الأدراج، يعني، مزاح لا أكثر".

"أوه"

ومرة قالت ماجي "هل أمورك طيبة يا دوري؟ في زواجك أقصد؟ سعيدة يعني؟"

قالت دوري نعم، بغير تردد. وبعد ذلك بدأت تنتبه أكثر إلى ما تقوله. فقد فهمت أن هناك أمورا تعوّدتها، ولكن غيرها قد لا يفهمها. ولويد كانت له طريقة خاصة في النظر إلى الأمور، وتركيبته. حتى أيام قابلته في المستشفى لأول مرة، كان هكذا. كانت كبيرة طاقم التمريض امرأة مُنشَّاة، فكان يطلق عليها "السيئة اللي تشل" بدلا من "السيدة ميتشل" وينطقها بسرعة كبيرة فلا تتبينها إلا لِمامًا. كان يرى أنها تحابي ناسا على ناس، ولم يكن ممن تحابيهم. وهناك الآن شخص يكرهه في مصنع الآيس كريم، شخص يسميه لِوِي اللّحاس. لم تكن دوري تعرف اسم الرجل الحقيقي. ولكن ذلك على الأقل كان يثبت أنه لم يكن يقصر كراهيته على النساء.

كانت دوري متأكدة أن أولئك الناس ليسوا بالسوء الذي يتصوره فيهم لويد، ولكن مواجهته كانت أمرا لا طائل منه. ربما الرجال هكذا، لا بد أن يكون عندهم أعداء، مثلما لا بد أن تكون عندهم نكات. وأحيانا كان لويد يجعل من أعدائه نكاته، تماما كما لو أنه يسخر من نفسه. وكان مسموحا لها بمشاركته السخرية، طالما لم تكن هي البادئة.

كانت ترجو ألا يسلك هذا المسلك مع ماجي، وتخشى في بعض الأحيان أن يكون شيء من هذا النوع في الطريق. ولو أنه منعها من الذهاب مع ماجي إلى المدرسة أو التسوّق، لكان ذلك إزعاجا حقيقيا. ولكن الأسوأ هو ما كان ليلحقها من عار. كانت لتضطر أن تلفق كذبة غبية، وتشرح الأمور شرحا مرتبكا، وفي النهاية كانت ماجي لتعرف على الأقل أن دوري تكذب، فتقاطعها، بما يعني ربما أن دوري في موقف أسوأ فعلا من الموقف الذي هي فيه. كانت لماجي طريقتها الحادة المترفعة عن الهراء في النظر إلى الأمور.

ثم سألت دوري نفسها لماذا تبالي أصلا بما يمكن أن يذهب إليه تفكير ماجي، وما ماجي إلا غريبة، وما هي حتى بالشخص الذي ترتاح معه دوري ارتياحا فارقا. كان المهم هو دوري ولويد وأسرتهما. ذلك ما كان يقوله لويد، وعنده حق. فحقيقة ما بينهما، حقيقة الرابطة التي تربطهما، شيء لا يمكن لأحد فهمه، ولا هو يخص غيرهما أيضًا. ولو ركّزت دوري على وفائها هي لكان ذلك خيرا.

تدريجيًا تدهور الوضع. لم يصل إلى المنع المباشر، لكن النقد ازداد. فقد انتهى لويد إلى نظرية، أن الحساسية والربو عند ولدي ماجي هما غلطة ماجي. قال إن السبب غالبا ما يكون من الأم. وهو رأى ذلك مرارا في

المستشفى. الأم، المسيطرة، المتعلمة أكثر من اللازم.

قالت دوري "ولكن في بعض الأوقات يولد الأطفال بعيب ما. لا يمكنك أن تقول إن السبب من الأم كل مرة".

"ولم لا يمكنني؟"

"لا أقصدك **أنت**. لا أقصد لا يمكنك أنت بالذات. قصدت أنه ألا يمكن أنهم يولدون هكذا".

"ومنذ متى وأنت خبيرة في الطب؟"

"لم أقل خبيرة".

"ولست خبيرة".

ومن سيء إلى أسوأ. صار يريد أن يعرف فيم تتكلمان، هي وماجي.

"أنا عارفة! ولا شيء، عادي"

"ظريف جدا. امرأتان في سيارة. أول مرة أسمعها. ويتكلمان في ولا شيء. ستخرب بيتنا على فكرة".

"من؟ ماجي؟"

"هذه النوعية ليست جديدة عليّ".

"أي نوعية؟"

"نوعيتها".

"لا تكن سخيفا".

"حاسبي على كلامك".

"ما الذي يجعلها تريد خراب بيتنا؟"

"ومن أدراني؟ هي فقط تريد خراب البيت. صبرك عليها. وسترين بعينيك. ستبدأ تعيد وتزيد معك في وضاعتي".

والحقيقة أن ما قاله هو الذي حدث. أو أن هذا ما كان ليبدو عليه الأمر بالقطع في نظر لويد. وجدت نفسها الساعة العاشرة مساء في مطبخ ماجي وقد اختلط دمعها بمخاطها، وأمامها فنجان الشاي العشبي. وكانت

قد سمعت زوج ماجي يقول وهو قادم ليفتح لها بعدما طرقت الباب "ماذا هناك بحق الجحيم؟". لم يكن يعرف من بالباب. قالت "آسفة جدا على الإزعاج ـ" بينما كان هو ينظر إليها بحاجبين مرفوعين وفم مزموم.

مشت دوري الطريق كله في الظلام، في البداية على الطريق الحصوي الذي تعيش هي ولويد في نهايته، ثم على الطريق السريع. وكانت تنزل إلى المصرف الموازي للطريق كلما مرّت سيارة، فأبطأ هذا من سيرها إلى حد كبير. كانت تنظر إلى كل سيارة تمرّ، متصوّرة أن لويد في إحداها، ولم تكن تريد أن يعثر عليها، ليس بعد، ليس قبل أن ينتابه الفزع بسبب ما فيه من جنون. وقد سبق لها أن جعلت جنونه هذا ينقلب عليه فزعا بالبكاء والنحيب بل وبخبط رأسها في الأرض وهي تصرخ "غير صحيح. غير صحيح. غير صحيح". فكان في النهاية يتراجع ويقول "أوكيه، أووووووكيه، أنا أصدق يا عسولتي، اهدئي. فكري في الأولاد. أصدق يا عسولة لكن اهدئي".

ولكنها الليلة تمالكت نفسها بمجرد أن أوشك على البدء في هذا، ولبست المعطف وخرجت من الباب بينما يصيح هو "ارجعي، ارجعي أقول لك".

كان زوج ماجي قد ذهب إلى السرير، غير راض بالمرة عما يجري، بينما بقيت دوري تقول "أنا آسفة، أنا آسفة أني اقتحمتكم في هذا الوقت من الليل".

قالت ماجي بصوت طبيبة العيون اللطيف "اوه، اسكتي يا بنت. أصب لك كأس نبيذ؟"

"أنا لا أشرب".

"وأحسن ألا تبدئي الآن. سأعمل لك كوب شاي. مهدئ جدا. توت بري وبابونج. الأولاد بخير، ها؟"

"نعم".

تناولت ماجي معطفها ووضعت لها علبة كلينكس لتمسح عينيها وأنفها. "لا تحك أي شيء. الأول تهدئين".

وحتى قبل أن تهدأ تماما، لم تكن دوري تريد أن تحكي الحقيقة كاملة، فتعرف ماجي أنها شخصيا في قلب المشكلة. وأهم من ذلك أنها لم تكن تريد أن تضطر للتبرير لـ لويد. فمهما حلّ عليها من مصائب معه، يبقى هو

أقرب شخص إليها في العالم، ويبقى أنها تشعر أن كل شيء سوف ينهار إن هي حملت نفسها حملا على أن تحكي لأحد كيف هو لويد بالضبط، إن هي تخلّصت تماما من الوفاء.

قالت إنها تشاجرت مع لويد على مسألة قديمة، وإنها قرفت من تجدد الكلام فيها كل مرة، وأرادت أن تخرج. ولكنها سوف تتجاوزها، كما قالت. هما سوف يتجاوزانها.

قالت ماجي "هذا يحدث أحيانا لأي اثنين".

رن الهاتف وردت ماجي.

"نعم. هي بخير. أرادت فقط أن تمشي وتكسر الروتين. حاضر. أوكيه. غدا أوصلها إلى البيت. ولا إزعاج ولا أي شيء. أوكيه. تصبح على خير".

قالت "هو. أظن أنك سمعت".

"وصوته؟ عادي؟"

ضحكت ماجي "ومن أدراني بصوته وهو عادي؟ ليس سكران على أي حال".

"هو لا يشرب أيضًا. حتى القهوة لا تدخل بيتنا".

"أسخن لك توست؟"

في الصباح أوصلتها ماجي إلى البيت مبكرا. لم يخرج زوج ماجي إلى عمله، وبقي مع الولدين. كانت ماجي تتعجل الرجوع، فلم تزد عن "باي باي، اتصلي بي لو احتجت أن تتكلمي" وهي تدور بالشاحنة الصغيرة في الفناء. كان صباحا باردا في أول الربيع ولم يزل ثمة جليد على الأرض، ولكن لويد كان جالسا على العتبة دون جاكت.

قال "صباح الخير" بصوت عال، والغريب أنه أيضًا مهذب. وقالت صباح الخير، بصوت لم تبين فيه أنها لاحظت صوته.

لم يتزحزح ليتيح لها الدخول.

قال "لا يمكنك الدخول".

رأت أن تأخذ الأمر ببساطة.

"حتى لو قلت لك من فضلك؟ من فضلك".

نظر إليها ولم يرد. ابتسم وشفتاه متلاصقتان.

"لويد؟ لويد؟"

"أحسن لك ألا تدخلي".

"لم أقل لها أي شيء يا لويد. أنا آسفة أني خرجت. كنت محتاجة لمكان أتنفس فيه، فقط".

"أحسن لك ألا تدخلي".

"ما حكايتك؟ أين الأولاد؟"

هز رأسه مثلما يفعل كلما قالت ما لا يروق له. شيئا بسيط الوقاحة من قبيل "يا دين أمي!".

"لويد، أين الأولاد؟"

تزحزح قليلا بحيث تستطيع المرور إن أرادت.

ديمتري لا يزال في مهده، مستلقيًا بالعرض، باربرا على الأرض جنب سريرها، كأنما نزلت منه أو انتزعت على غير إرادة. وساشا جنب باب المطبخ ـ كان قد حاول الهروب. كان الوحيد الذي على حلقه كدمات. أما الآخران فتكفلت بهما الوسادة.

قال لويد "عندما اتصلت أمس. كان الأمر انتهى".

قال "أنت جلبته على نفسك".

صدر حكم بجنونه، وعدم جواز محاكمته. ولأنه كان مجنونا جنائيا، كان لا بدّ من وضعه في مؤسسة مؤمَّنة.

خرجت دوري من البيت وهي تجري وتتعثر في الفناء، وتشد بذراعيها على بطنها كأنما بُقِرَت، فهي تحاول لملمة أحشائها. وذلك هو المشهد الذي رأته ماجي عندما رجعت. كان قد خطر لها هاجس، فأدارت الشاحنة وهي في الطريق، وأول ما رأت دوري ظنت أنها ضربت أو ركلت في بطنها، وما كان لها أن تتبين شيئا مما كان يصدر عن دوري، لكن لويد، الذي كان لا يزال جالسا على العتبة، تنحّى لها بأدب، دون أن ينطق بكلمة، فدخلت البيت ورأت ما كانت تتوقع الآن رؤيته، واتصلت بالشرطة.

لفترة ظلت دوري تضع كل ما تقع عليه يدها في فمها. ومن التراب والعشب انتقلت إلى الملاءات والمناشف وثيابها نفسها. وكأنها لم تكن تحاول خنق عويلها فقط، بل وأن تمحو المشهد كله من ذهنها. كانوا يحقنونها بشيء ما، بانتظام، بهدف تهدئتها، وأفلح الأمر. هدأت تماما، وإن لم تبلغ درجة الجمود. قالوا إنها استقرت. وعندما خرجت من المستشفى وجاء بها الإخصائي الاجتماعي إلى ذلك المكان الجديد، تولت السيدة صاندس أمرها، دبرت لها مكانا تعيش فيه، ووجدت لها وظيفة، وحددت لها جلسة أسبوعية تتكلمان فيها معا. كانت ماجي تأتي لزيارتها، ولكن دوري لم تكن تحتمل رؤيتها، وهو شعور قالت السيدة صاندس إنه طبيعي، ارتباط. وقالت إن ماجي ستفهم.

قالت مسز صاندس إن زيارة لويد من عدمها أمر يرجع إلى دوري. "فمهمتي هنا لا أن أوافق أو أعترض، فاهمة طبعا. هل ترتاحين لرؤيته أم تنزعجين؟"

"لا أعرف".

لم تستطع دوري أن تشرح لها أن من تراه لا يبدو وكأنه هو. كان الأمر أشبه برؤية شبح. شديد الشحوب. متهدل الثياب، حذاء لا يصدر عنه أدنى صوت، لعله شبشب. وتكوَّن لديها انطباع بأنه بدأ يفقد شعره. شعره الكثيف عسلي اللون. ولم يعد لكتفيه عرضهما، ولا تجويف ترقوته الذي كانت تضع فيه رأسها من قبل.

ما قاله للشرطة، وما نقلته الجرائد لاحقا، هو "أردت أن أجنبهم الشقاء".

أي شقاء؟

قال "شقاء أن يعرفوا أن أمهم مشيت وتركتهم".

التصق هذا في مخ دوري، فلعلها حينما قررت أن تزوره، كانت فكرتها من ذلك أن تجعله يتراجع عن هذا الكلام. أن تجعله يعترف ويرى كيف سارت الأمور بالفعل.

"أنت قلت لي إما أن أتوقف عن معارضة كلامك وإما أن أخرج من البيت. فخرجت من البيت".

"ولم أذهب إلا إلى بيت ماجي، ولليلة واحدة. وكانت نيتي الوحيدة هي الرجوع. فأنا لم أمش وأترك أحدا".

تتذكر بمنتهى الدقة كيف بدأ الشجار. كانت قد اشترت علبة مكرونة إسباجيتي فيها انبعاج طفيف للغاية، وبسبب ذلك الانبعاج كان على المكرونة تخفيض كبير، فأخذتها وهي فرحة بشطارتها. كانت تتصور أنها فعلت شيئا ذكيا لكنها لم تقل له ذلك حينما بدأ استجوابها. فقد رأت لسبب ما أن تتظاهر بأنها لم تلاحظ الانبعاج.

قال، الأعمى كان ليلاحظ. وإنهم جميعا كان يمكن أن يتسمموا. وما لها وما حكايتها؟ أم أن هذا هو ما كان في دماغها؟ هل كانت تخطط لتجريبها على الأولاد أم عليه؟

قالت له لا تكن مجنونا.

فقال إن المجنون غيره. فمن، إلا امرأة مجنونة، يشتري سمًا لأسرته؟

كان الأطفال يتفرجون من الطرقة المفضية إلى الصالة. وتلك كانت آخر مرة تراهم فيها أحياء.

وذلك إذن ما كانت تفكر فيه، أنها قد تجعله يدرك، أخيرا، من الذي كان مجنونا؟

عندما أدركت ما كان في دماغها، كان ينبغي أن تنزل من الحافلة. كان يمكن حتى أن تتركها عند البوابة، مع قليل من النسوة اللاتي كن يمشين بتثاقل على الممشى. كان يمكن أن تعبر الطريق إلى الناحية الأخرى وتنتظر الحافلة العائدة إلى المدينة. ولعل هذا ما فعله البعض. كانوا يقومون بزيارة ثم قرروا ألا يقوموا بها. ولعل هذا ما يفعله الناس طيلة الوقت.

لكن ربما تكون أحسنت صنعا بذهابها، ورؤيتها له غريبا وضائعا. شخصا لا يمكن أن يلام على شيء. بل ليس شخصا. كان أشبه بكائن في حلم.

وكانت تحلم. في واحد من أحلامها هربت من البيت بعد أن عثرت عليهم، وانطلق لويد يضحك ضحكته القديمة، ثم سمعت ساشا يضحك من ورائها، وطلع عليها الفجر رائعا وتبين أنهم جميعا كانوا يمزحون.

"**سألتِني** إن كانت زيارته تريحني أم تتعبني؟ آخر مرة سألتني هذا السؤال؟"

قالت السيدة صاندس "نعم سألتك".

"كان لا بدّ أن أفكر فيه".

"نعم".

"انتهيت إلى أنها تتعبني. وقررت ألا أكررها".

كان صعبًا تبيّن رد فعل السيدة صاندس، ولكن إطراقة رأسها بدت وكأنها تعني الرضا أو الاستحسان.

لذلك عندما قررت دوري أن تزوره مرة أخرى، رأت أنه يستحسن ألا تذكر شيئا عن الأمر. ولأنه من الصعب عليها أن تسكت عن شيء وقع لها ـ وما يقع لها قليل للغاية في أغلب الأوقات ـ فقد اتصلت وألغت موعدها، بدعوى أنها ذاهبة لقضاء إجازة. كان الصيف على الأبواب، ومن ثم فالإجازات واردة. قالت، مع صديق.

"**لا أرى** أنك ترتدي جاكت الأسبوع الماضي".

"لم يكن الأسبوع الماضي".

"فعلا؟"

"كان منذ ثلاثة أسابيع. الجو الآن حار. هذا أخف، لكنني لا أحتاج إليه أيضًا. ليست هناك أي حاجة إلى جاكت".

سألها عن رحلتها، وعن الحافلات التي أقلتها من ميلدماي.

قالت له إنها لم تعد تعيش هناك أصلا. قالت له أين تعيش، وكلّمته عن الحافلات الثلاث.

"هذه رحلة بالنسبة لك. يعجبك العيش في مكان كبير؟"

"العثور على عمل أسهل هناك".

"إذن أنت تعملين؟"

كانت قد أخبرته في المرة الأخيرة عن المكان الذي تعيش فيه، والحافلات، والمكان الذي تعمل له.

قالت "أنظف الغرف في فندق صغير. قلت لك".

"صحيح صحيح، نسيت. أنا آسف. ألا تفكرين في الرجوع إلى المدرسة؟ مدرسة ليلية؟"

قالت إنها فكرت في الأمر فعلا، لكنه ليس التفكير الفعلي اللازم لعمل أي شيء. قالت إنها لا تبالي بالعمل الذي تقوم به.

ثم بدا أنهما لا يجدان ما يقولانه بعد ذلك.

تنهد، وقال، "آسف. آسف. أظن أنني لست معتادا على التحاور".

"وماذا تفعل طول الوقت؟"

"أعتقد أنني أقرأ لوقت معقول. وشيء من التأمل. يعني".

"أوه".

"أقدّر مجيئك إلى هنا. معناه عندي كبير. لكن لا تتصوري أنك مضطرة إلى ذلك. قصدي، كلما رغبت في ذلك. تعالي فقط حينما ترغبين. إذا جدّ شيء، إذا شعرت أنك لا تريدين، الذي أريد أن أقوله هو أن مجرد مجيئك من الأساس، مجيئك ولو مرة، هو بالنسبة لي مكافأة في حد ذاته. فاهمة قصدي؟"

قالت نعم. قالت إنها تظن ذلك.

قال إنه لا يريد أن يحشر نفسه في حياتها.

قالت "ولكنك لا تفعل".

"هذا ما كنت ستقولينه؟ كنت أظن أنك ستقولين شيئا آخر".

الحقيقة أنها أوشكت أن تقول، أي حياة؟ لكن قالت، لا، ليس بالضبط، لا شيء آخر.

"جميل".

بعد ثلاثة أسابيع، تلقت اتصالا. كانت السيدة صاندس بنفسها على الخط، وليس امرأة من مكتبها.

"أوه دوري، تصورت أنك لم ترجعي بعد من إجازتك. رجعت إذن؟"

قالت دوري "نعم" وهي تحاول أن تتذكر أين قالت إنها ستقضي الإجازة.

"لكنك لم تحاولي ترتيب موعد آخر؟"

"لا، لم يحدث بعد".

"أوكيه، كنت أطمئن فقط. أنت بخير؟"

"أنا بخير".

"جميل جميل. أنت عارفة أين تجدينني إذا احتجت إلي. أي وقت تريدين أن تتكلمي".

"حاضر".

"خلي بالك من نفسك"

لم تأت على ذكر لويد، لم تسأل إن كانت الزيارات استمرّت. طبيعي، طبيعي جدا، دوري قالت إنها لن تستمر. ولكن عادة ما تكون السيدة صاندس بارعة في الإحساس بما يجري. وبارعة أيضًا في إمساك نفسها عندما تشعر أن السؤال لن يصل بها إلى شيء. لم تكن دوري تعرف ما الذي يمكن أن تقوله إن سئلت، هل تتراجع عن موقفها وتختلق كذبة أم تقول الحقيقة. لقد رجعت إليه في الأحد التالي مباشرة للأحد الذي قال لها فيه، عمليا ـ إنه يستوي لديه إن زارته أم لم تزره.

كان عنده برد. ولم يكن يعرف كيف أصيب به.

قال إنه ربما كان في بداياته عندما رآها آخر مرة، وإن ذلك ربما كان هو السبب في تعكر مزاجه.

تعكر المزاج! ربما لم تكن لها علاقة في تلك الأيام بأحد يستخدم مثل هذه الكلمة، فبدت غريبة على أذنيها. ولكنه كان معتادًا على استخدام تلك النوعية من الكلمات، ولا بد أن وقعها عليها كان ذات يوم مختلفا.

سأل "هل أبدو لك شخصا مختلفا؟"

قالت بحذر "يعني، شكلك متغير. وأنا أيضًا؟"

قال بأسى "شكلك جميل".

لان فيها شيء، لكنها حاربته.

سأل "شعورك تغير؟ كأنك أنت نفسك تغيرت؟"

قالت إنها لا تعرف "وأنت؟"

قال "على الإطلاق".

في ثنايا الأسبوع نفسه، وصل إليها مظروف كبير على الفندق. وصل إلى الفندق وعليه إشارة بأنه لعنايتها. فيه الكثير من الورق المكتوب على وجهيه. لم تتصوّر في البداية أن يكون منه، كان يخيل إليها أنه ليس مسموحا لمن يكونون في السجن أن يكتبوا الرسائل، ولكنه كان بالطبع مسجونا من نوع مختلف، فهو لم يكن مجرما، بل مجنونا جنائيًا.

لم تكن الوثيقة تحمل تاريخًا، أو حتى عبارة "دوري العزيزة". كل ما هنالك أنه بدأ الحديث إليها بنبرة رأت فيها ما يشبه دعوة دينية:

يبحث الناس في كل موضع عن حل. تتقيح عقولهم (من البحث). وكم من شيء يتخبطون فيه فيتأذون. ولك أن تري في وجوههم كدماتهم وأوجاعهم. إنهم متعبون. ومتعجّلون. يتسوّقون ومن السوق يذهبون إلى المغاسل ويحلقون شعورهم ويعملون من أجل لقمتهم، أو يحصلون على الإعانات. الفقراء منهم مرغمون على ذلك، والأثرياء لا همّ لهم إلا البحث عن أفضل أوجه الإنفاق. وذلك بدوره عمل. عليهم أن يقيموا أفضل البيوت بصنابير ذهبية تصب لهم الماء الساخن والبارد. وهناك سياراتهم الأودي، وفرش أسنانهم السحرية، وكل ما يتسنّى لهم من الأجهزة المعقدة، وتأتي من بعد ذلك أجهزة الإنذار تقيهم الذبح، والفقير والغني لا يعرفان طمأنينة الروح. كنت سأكتب "القريب" بدلا من "الفقير"، فلم هذا؟ ولا أحد قريب مني هنا. ليس إلا أناسا تجاوزوا الكثير من أسباب حيرتهم. هم يعرفون ما يملكونه وما سيظلون دائما يملكونه وما هم حتى بمرغمين على شراء طعامهم أو طهوه. أو اختياره. الاختيارات زالت.

كل ما بوسعنا الحصول عليه هنا هو ما تحصل عليه أذهاننا.

في البداية لم يكن في رأسي إلى التاشوش (هجاء خاطئ؟). عاصفة دائمة، فكنت أخبط رأسي في الإسمنت عساني أتخلّص منها. وأوقف كربي وحياتي. وإذن فقد تحقق العقاب. حمموني بالخرطوم وقيدوني وحقنوني بالعقاقير في دمي. ولست أشكو، لأنني علمت أن لا نفع من الشكوى. ولا أن هذا المكان مختلف في شيء عن العالم الواقعي، حيث الناس يشربون ويشربون ويقترفون الجرائم عساهم يزيلون من رءوسهم أفكارهم الموجعة. وقد يحتجزون أو يحبسون ولكن لوقت لا يكفي للانتقال إلى الجانب الآخر. وما الجانب الآخر؟ هو إما الجنون المطبق، وإما السلام المطلق.

السلام. بلغت السلام ولم أزل عاقلا. أتخيلك وأنت تقرئين هذا فتفكرين أنني موشك على قول شيء عن الرب يسوع أو بوذا على الأقل كما لو كنت قد اعتنقت دينا. ولكن لا. أنا لا أغمض فترفعني أي قوة عليا. ولا أنا أعرف ما الذي يمكن أن يعنيه مثل هذا أصلا. ما أعرفه هو أني أعرف نفسي. اعرف نفسك هذه تبدو وصية واردة في مكان ما، لعلها مذكورة في الإنجيل، وبهذا المعنى أكون اتبعت المسيحية. وأيضا، اصدق مع نفسك، ذلك أيضًا شيء حاولته، لو أنه مذكور في الإنجيل هو الآخر. ولو أنها لا تحدد أي الجزأين ـ الشرير أم الطيب ـ هو الذي ينبغي للمرء أن يصدق معه فيهديه صدقه إلى الأخلاق. واعرف نفسك لا علاقة لها بالأخلاق المرتبطة بالسلوك. ولكن السلوك لا يشغلني أيضًا، وقد صدر بحقي حكم صائب ينص على أنني شخص لا يوثق في تقديره للطريقة التي ينبغي أن يكون عليها سلوكه وهذا سبب وجودي هنا.

نرجع لجزئية اعرف في اعرف نفسك. يمكنني أن أقول بهدوء ما بعده هدوء إنني أعرف نفسي وأعرف أسوأ ما أنا قادر عليه، وأعرف أني فعلته. لقد حكم عليّ العالم أني وَحش ولا اعتراض لي على ذلك وإن كان يمكنني أن أقول بإيجاز إن من يمطرون القنابل أو يحرقون المدن أو يجوّعون المئات بل الآلاف ويقتلونهم لا يعدون بصفة عامة وحوشا، بل تهطل عليهم الأوسمة والنياشين، ولا يعدّ صاعقًا وشريرًا إلا من يرتكب الأفعال بحق أعداد صغيرة. وهذا ليس مبررا بل ملحوظة.

ما أعرفه في نفسي هو شري الخاص. هذا هو سر ارتياحي. أقصد أني أعرف أسوأ ما بي. قد يكون أسوأ من الأسوأ عند غيري ولكنني في حقيقة الأمر لست مشغولا بهذا أو قلقا بسببه. ولا أبرر. أنا في سلام. هل أنا وحش؟ هذا هو رأي العالم وما دام قد قيل فأنا موافق. ولكنني أرجع فأقول إن العالم ليس لديه أي معنى حقيقي لي. أنا نفسي وليس ثمة فرصة لأن أكون أي نفس أخرى. يمكن أن أقول إنني كنت مجنونا يومها ولكن ما معنى هذا؟ الجنون. العقل. أنا هو أنا. لا يمكن أن أغيّر أناي وقتها، ولا يمكن أن أغيّرها الآن.

دوري، لو أنك تقرئين إلى الآن فهناك شيء خاص أريد أن أقوله لك، لكنني لا أستطيع أن أكتبه. ولو فكرت في الرجوع إلى هنا فقد أقوله لك. لا تتصوري أنني عديم القلب. لا أقول إنني ما كنت لأغيّر الأمور لو تسنّى لي، ولكنني لا أستطيع. إنني أبعث هذا إلى مكان عملك الذي أتذكره هو واسم البلدة، فعقلي إذن من بعض النواحي بخير.

فكرت أنهما سوف يتناقشان في هذه القطعة في لقائهما التالي، ولذلك قرأتها عدة مرات، ولكن عقلها لم يصل إلى أي شيء يمكن أن تقوله. كل ما كان بوسعها أن تفكر فيه حقا هو ما قال إنه من المستحيل أن يباح به كتابة. ولكنه حينما التقت به بعدها تصرف وكأنه لم يكتب إليها على الإطلاق. فتشت عن موضوع فحكت له عن مغنية شعبية كانت شهيرة ذات يوم أقامت في الفندق أسبوعا. ولدهشتها تبين أنه يعرف عن المغنية أكثر مما كانت تعرفه هي. تبين أن عنده جهاز تليفزيون، أو يمكنه على الأقل أن يشاهد واحدا، وبالتالي يشاهد بعض البرامج، وبالطبع يتابع الأخبار بانتظام. أتاح لهما ذلك ما يتكلمان فيه قليلا، إلى أن عجزت عن تمالك نفسها.

"ما ذلك الشيء الذي قلت إنك لا يمكن أن تخبرني به إلا شخصيًا؟"

قال إنه كان يتمنى لو لم تسأله. فهو لا يعرف إن كانا جاهزين لمناقشته.

ثم إنها خشيت أن يكون شيئا لا يمكنها فعلا التعامل معه، شيئا لا يمكن احتماله، كأن يقول مثلا إنه لا يزال يحبها. كان "الحب" مفردة لا تستطيع أن تسمعها.

قالت "أوكيه. ربما لا نكون جاهزين بالفعل".

ثم قالت "ولكن يستحسن أن تقول لي. فلو خرجت من هنا وصدمتني سيارة لن أعرف إلى الأبد، ولن تسنح لك الفرصة أبدا لأن تخبرني".

قال "صحيح".

"فما الأمر؟"

"المرة التالية، المرة التالية. أحيانا أعجز عن الكلام. أكون راغبا، ولكن الكلام يجف".

كنت أفكر فيك يا دوري منذ أن ذهبت وأنا نادم أن أحبطتك. عندما تكونين جالسة أمامي أكون عازما على أن أكون أكثر عاطفية مما قد أبين. لا يحق لي أن أكون عاطفيا معك، لأن حقك أنت في هذا أكبر ولكنك تتمالكين نفسك دائما. ولذلك سوف أعكس ما سبق وقلته لك لأنني توصلت إلى أنني أقدر على الكتابة إليك في نهاية المطاف من الحديث معك.

والآن من أين أبدأ؟

هناك جنة.

هذه طريقة لكنها ليست الطريقة الصحيحة لأنني لم أومن قط بالجنة والجحيم وهذه الأمور. فكل ذلك في حدود رأيي ليس إلا روثا. فلا بدّ أن يكون أمرا غريبا مني أن أثير الموضوع الآن.

يمكن إذن أن أقول: رأيت الأولاد.

رأيتهم وتكلمت معهم.

عندك! فيم تفكرين في هذه اللحظة؟ تقولين لنفسك، خلاص، لقد جن جنونه. أو، رأى حلما، لكنه غير قادر على تمييز أنه حلم، لا يعرف الفرق بين الحلم والصحو. لكن أريد أن أقول لك إنني أعرف تماما الفرق، وما أعرفه هو أنهم موجودون. أقول إنهم موجودون. لا أقول أحياء، لأن الحياة لا وجود لها إلا في البعد المعين الذي نعيش فيه. وأنا لا أقول إنهم ها هنا موجودون. بل إنني أعرف، كحقيقة، أنهم ليسوا كذلك. ولكنهم موجودون فعلا ولا بدّ أن يكون هناك بعد آخر، أو ربما ما لا عدد له من الأبعاد، ولكنني أعرف أنني على اتصال بالبعد الذي هم فيه أيا كان. محتمل أنني اكتسبت هذا من فرط بقائي وحدي واضطراري إلى التفكير والتفكير. وبعد كل هذه المعاناة والعزلة رأت رحمةُ إلهِ، مهما يكن هذا الإله، أن تجازيني، وتواسيني وتخفف عني بهذه الوسيلة. فأنا أجدر الناس بها، وأقلهم جدارة بها وفقا لتفكير العالم.

ولو أنك لا تزالين تقرئين ولم تمزقي هذه الورقة إربا، فلا بدّ أنك تريدين أن تعرفي شيئا. مثلا كيف حالهم. هم بخير. سعداء وأذكياء. ولا يبدو أن في ذاكرتهم أي شيء سيء. لعلهم أكبر قليلا مما كانوا عليه ولكن صعب القطع بهذا. يبدو أنهم يفهمون على مستويات مختلفة. نعم. يمكنك أن تلاحظي في ديمتري أنه تعلم الكلام وهو لم يكن يتكلم بعد. هم في غرفة لا أستطيع إبصارها إلا جزئيا، شبيهة ببيتنا لكنها أوسع وألطف. سألتهم عن كيفية الاعتناء بهم فضحكوا وقالوا لي ما معناه إنهم قادرون على الاعتناء بأنفسهم. أظن ساشا هو الذي قال ذلك. أحيانا لا يتكلمون منفصلين أو أنني على الأقل لا أستطيع الفصل بين أصواتهم، لكن هوياتهم واضحة تماما وينبغي أن أقول إنهم فرحون.

أرجوك لا تقولي إنني مجنون. هذا ما جعلني أخاف أن أحكي لك عن

الأمر. لقد كنت مجنونا في وقت ما ولكنني تخلصت من جنوني القديم مثلما يتخلص الدب من فرائه. أو ربما يجدر بي القول مثلما يتخلص الثعبان من جلده. أعرف أنني لو لم أفعل ذلك لما حظيت أبدًا بالقدرة على الاتصال من جديد بساشا وباربرا آن وديمتري. والآن أرجو أن تحظي أنت أيضًا بهذه الفرصة، لأنها إن تكن مسألة جدارة فأنت تتقدمين عني. قد يكون الأمر أصعب عليك نظرا لحياتك في العالم أكثر مني، ولكن بوسعي أن أقدم لك على الأقل هذه المعلومة - أي الحقيقة- وإنني إذ أقول لك إنني رأيتهم لأرجو أن يخفف هذا عن قلبك المثقل.

لم تدر دوري ما الذي يمكن أن تقوله السيدة صاندس، أو يذهب إليه تفكيرها لو قرأت تلك الرسالة. طبعا سوف تكون حذرة. ستكون حذرة ولن تصدر أي حكم مباشر بالجنون، ولكنها بحذر وطيبة سوف توجّه دوري إلى هذا الاتجاه. أو ربما يمكنك القول إنها لن توجه بقدر ما ستزيل الارتباك بحيث تصبح دوري في مواجهة ما سوف يبدو وكأنه النتيجة التي توصلت إليها بمحض تفكيرها. سيكون عليها أن تطرح كل الهراء الخطير -على حد تعبير السيدة صاندس الأكيد- من عقلها.

ولذلك السبب لن تقترب دوري منها بالمرة.

كانت دوري ترى فعلا أنه مجنون. وبدا لها فيما كتبه أثر ما من تفاخره القديم. لم ترد عليه. ومضت أيام. وأسابيع. لم تغير رأيها فيما كتبه، لكنها ظلت متشبثة به كأنه سر. وبين الوقت والآخر، كان يحدث وهي في غمرة رش مرآة أو فرد ملاءة أن ينتابها إحساس. كانت على مدار سنتين لم تلحظ أي شيء من تلك الأشياء التي تجعل الناس سعداء، كتحسن الجو أو تفتح الزهر أو رائحة الخبيز. وظلّت لا تشعر بأي إحساس عفوي بالسعادة، لكن بات لديها ما يذكرها بطبيعتها. لم تكن للسعادة علاقة بالجو أو الزهور. إنما فكرة وجود الأولاد فيما يسميه بعدهم هي التي كانت تتسلّل إليها بتلك الطريقة، وتسرّب إليها لأول مرة إحساس خفيف بغير الألم.

طوال الفترة التي مضت، منذ أن حصل ما حصل، كانت أي فكرة لها علاقة بالأولاد شيئا عليها أن تتخلص منه، تنتزعه على الفور انتزاع سكين من الحلق. لم تكن تستطيع أن تفكر في أسمائهم، وإن سمعت اسما فيه شبه من أسمائهم تبدّده من رأسها على الفور. حتى أصوات الأولاد، وصراخهم وطرقعة أقدامهم حينما يجرون عند مسبح الفندق، كان لا بدّ من إيقافها وراء بوابةٍ، ما كانت تستطيع أن توصدها من وراء أذنيها. والذي

اختلف الآن هو أنه أصبح لديها ملاذ يمكنها أن تأوي إليه كلما اقترب منها أي من تلك الأخطار.

ومن منحها ذلك؟ ليست السيدة صاندس، ذلك كان أمرا مؤكدا. رغم كل تلك الساعات من الجلوس أمام مكتبها على مقربة من علبة الكلينكس.

لويد هو الذي منحها ذلك. لويد، ذلك الشخص الفظيع، ذلك الشخص المحبوس المجنون.

مجنون لو أردتم أن تطلقوا عليه هذا. لكن أليس محتملا أن يكون ما قاله صحيحا، أنه انتهى إلى الجانب الآخر؟ ومن الذي يقول إن رؤى شخص فعل ما فعله وقطع مثل تلك الرحلة لا تعني أي شيء؟

حفرت تلك الفكرة طريقا إلى رأسها واستقرت هناك، مثل دودة.

بجانب فكرة أخرى، مفادها أن لويد، من بين كل الناس في العالم، هو من ينبغي لها الآن أن تكون معه. فما الغاية من وجودها في العالم -هكذا كان يبدو أنها تقول لشخص، لعلّه السيدة صاندس- ما غاية وجودها هنا إن لم يكن لتصغي إليه على الأقل؟

لم أقل "لأغفر". هكذا قالت في رأسها للسيدة صاندس. وما أنا لأقولها أبدا. وما أنا لأفعل ذلك أبدا.

لكن فكّري فقط. ألست مجروحة مما جرى مثله تماما؟ لا يوجد أحد ممن عرف بما جري يريدني على مقربة منه. فكل ما أتسبب فيه هو أنني أذكّر الناس بما لا يحتمل أحد أن يذكّره به أحد.

والتنكر لم يكن ممكنا، لا لم يكن. تاج الشوك الأصفر هذا مثير فقط للشفقة.

هكذا وجدت نفسها مرة أخرى على متن الحافلة المتجهة إلى الطريق السريع. تذكرت تلك الليالي التالية مباشرة لموت أمها، عندما كانت تخرج لمقابلة لويد، فتكذب على صديقة أمها، المرأة التي أخذتها إلى بيتها، وتقول لها إنها ذاهبة إلى أي مكان. تتذكر اسم الصديقة، اسم صديقة أمها، لوري.

من غير لويد يمكنه الآن أن يتذكر أسماء الأولاد، أو ألوان عيونهم؟ السيدة صاندس حينما تضطر أن تشير إليهم لا تقول حتى الأولاد، وإنما "أسرتك"، واضعة إياهم جميعا في جمع واحد.

في تلك الأيام، حينما كانت تذهب لمقابلة لويد، وتكذب على لوري، لم تكن تشعر بالذنب، بل بالمصير، بالخضوع. كانت تشعر أنها لم توجد على سطح الأرض إلا لكي تكون معه تحاول أن تفهمه.

حسن، لم يكن الوضع الآن مثل ذلك. لم يكن هو نفسه.

كانت تجلس في المقعد الأول في الناحية المقابلة لناحية السائق. وكانت ترى الطريق ممتدا أمامها بوضوح. ولذلك كانت هي الراكبة الوحيدة -والشخص الوحيد إضافة إلى السائق- الذي رأى شاحنة تتوقف على جانب الطريق دون أن تبطئ من قبل، فتنقلب عن الطريق الخاوي في صباح الأحد إلى المصرف الموازي. وأن ترى ما هو أغرب: سائق الشاحنة يطير منها إلى الهواء بطريقة بدت سريعة وبطيئة معا، عبثية وجميلة، إلى أن حط على الحصى عند حافة الرصيف، في الجهة المقابلة من الطريق.

أما بقية الركاب فلم يعرفوا لماذا ضغط السائق المكبح فجأة فأوقف السيارة بطريقة أزعجتهم جميعا. وللوهلة الأولى كان ما فكرت فيه دوري هو: كيف أمكنه الخروج؟ ذلك الشاب أو حتى الولد الذي لا بدّ أنه كان نائما على عجلة القيادة؟ وكيف طار من الشاحنة وعبر الهواء بتلك الرشاقة؟

"شخص أمامنا مباشرة"، قالها السائق للركاب محاولا الكلام بصوت مرتفع وهادئ، ولكن كانت في صوته نبرة اندهاش، وذهول. "انحرف عن الطريق حالا ووقع في المصرف. سنتحرك بأسرع ما نستطيع، وحتى ذلك الحين، أرجو عدم النزول من الحافلة".

كأنها لم تسمعه، أو كأنما كان لها حق خاص في النزول، مصدره أنها قادرة أن تفيد بشيء، نزلت دوري وراءه، ولم يلمها.

"كلب ابن كلب" قالها وهما يعبران الطريق ولم يبق في صوته غير الغضب والسخط. "عيل كلب ابن كلب، تصدقين هذا؟"

كان الولد مستلقيا على ظهره، وذراعاه وساقاه مفرودان على اتساعهما كما لو كان نائما يلعب على الجليد. غير أن ما كان حوله هو الحصى لا الجليد. لم تكن عيناه مغمضتين تماما. وكان صغيرا للغاية، مجرد ولد طال جسمه قبل حتى أن تنبت له لحية. وربما لا يحمل رخصة قيادة.

كان السائق يتكلم في الهاتف.

"حوالي ميل إلى الجنوب من بايفيلد، عند ٢١، الجانب الشرقي من

الطريق".

ظهر من أسفل رأس الولد، قرب الأذن، تيار زبد وردي. لم يكن شكله كالدم على الإطلاق، وإنما يشبه الرغوة التي تكشطها عن الفراولة عند إعداد المربى.

جلست دوري بجانبه. وضعت يدا على صدره. كان لا يزال. قزبت أذنها. قميصه مكوي قريبا، لا تزال فيه رائحة الكي.

لا نفس.

ولكن أصابعها عثرت في رقبته الطرية على نبض.

تذكرت شيئا كان قد قيل لها. لويد هو الذي كان قاله لها لتفعله إذا تعرض أحد الأولاد لحادث ولم يكن هو موجودا. اللسان. اللسان قد يمنع النفس، إذا سقط في مؤخرة الحلق. وضعت أصابع إحدى يديها على جبهة الصبي وإصبعين من يدها الأخرى على ذقنه. ضغطت على الجبهة، وعلى الذقن، لتفتح طريقا للهواء. فتحة ضئيلة للغاية.

وإذا لم يتنفس، يكون عليها اللجوء إلى التنفس الصناعي.

تفتح منخاريها، تأخذ نفسا عميقا، تضغط شفتيها على شفتيه. نفسان وتفحص. نفسان وتفحص.

صوت رجل آخر، غير السائق. لا بد أن راكب دراجة نارية توقف. "ألا تحتاجين هذه البطانية تحت رأسه؟". تهز رأسها بلا. كانت قد تذكرت شيئا آخر، عدم تحريك المصاب، لكي لا يصاب النخاع الشوكي. أحاطت بفمه. ضغطت بشرته الشابة الدافئة. نفخت في فمه وانتظرت. وعادت فنفخت وانتظرت. وبدا أن رطوبة خافتة تتصاعد على وجهها.

قال السائق شيئا لكنها لم تستطع أن ترفع رأسها. ثم شعرت به يقينا. نفس من فم الصبي. فردت يدها على صدره وللوهلة الأولى لم تدر إن كانت ترتفع وتنخفض أم لا، لأن يدها هي كانت ترتعش.

نعم. نعم.

كان نفسا حقيقيا. الممر الهوائي مفتوح. كان يتنفس بمفرده. كان يتنفس.

قالت لصاحب البطانية "غطه بها ليبقى دافئا".

مال عليها السائق قائلا "أهو حي؟"

أومأت. عثرت أصابعها مرة أخرى على النبض. لم يستمر التيار الوردي البشع في التدفق. لعله لم يكن شيئا ذا بال. ليس من مخه.

قال السائق "لا أستطيع أن أوقف الحافلة من أجلك، عندنا موعد لا بدّ أن نلتزم به".

قال صاحب الدراجة النهائية "لا بأس. أنا موجود".

أرادت أن تقول لهما اهدآ، اهدآ. كان يبدو لها أن الصمت مطلوب، وإن كل ما في العالم خارج جسم هذا الصبي لا بدّ أن يركز، فيساعد هذا الجسم على عدم نسيان واجب التنفس.

زفرات خجلى لكنها منتظمة، وطاعة جميلة من الصدر. استمر، استمر.

قال السائق "سمعت؟ هذا الرجل يقول إنه سوف يبقى هنا معه. والإسعاف قادم حالا".

قالت دوري "اذهب أنت. سأركب معهم إلى المدينة وألحق بك في طريق رجوعك الليلة".

كان عليه أن ينحني حتى يسمعها. كانت تتكلم وهي شاردة، ودون أن ترفع راسها، كأنما هي ذات الأنفاس العزيزة.

قال "متأكدة؟"

متأكدة.

"لست بحاجة إلى الذهاب إلى لندن؟"

لا.

قصص

(١)

أحلى ما في الشتاء الرجوع إلى البيت، بعدما يكون يومها قد انتهى في تدريس الموسيقى بمدارس رافريفر، ويكون الظلام قد حلّ بالفعل، وربما يكون الجليد قد بدأ ينهمر على شوارع البلدة الشمالية، بينما المطر يجلد السيارة على الطريق الساحلي السريع. كانت جويس تسوق متجاوزة حدود البلدة إلى الغابة، ورغم أنها غابة حقيقية فيها أشجار تنوب وسنديان عملاقة، كنتَ تجد من يعيشون فيها على بعد كل ربع ميل أو نحو ذلك، فمنهم من لديه بساتين صغيرة، وقليل لديهم غنم ترعى أو خيول تؤجر، أو مشاريع بسيطة مثل "جون لصناعة الأثاث وإصلاحه". بجانب الخدمات المعلن عنها على الطريق، وما يختص به هذا الجزء من العالم مثل قراءة التاروت، والعلاج بالأعشاب المعروف بالرسالة العشبية، ومجموعات حل النزاعات. هناك من يعيشون في بيوت مقطورة، وآخرون أقاموا لأنفسهم بيوتا ذات أسقف من القش وجذوع الشجر، وهناك آخرون يجددون بيوتا ريفية قديمة، ومن هؤلاء جويس وجون.

كان ثمة ما تحب جويس بصفة خاصة أن تراه وهي تسوق سيارتها وتنعطف إلى البيت. في ذلك الوقت، كان كثير من الناس، حتى البعض من أصحاب البيوت ذات الأسقف المصنوعة من القش، يضعون ما يسمى بأبواب الأفية، حتى إذا لم يكن لديهم فناء كالذي عند جون وجويس. وكان الناس يتركون تلك الأبواب دائما بغير ستائر، فينفرش أمام كل باب مستطيلان من الضوء يبدوان علامة على الراحة والأمن والكرم أو وعدا بها. أما لماذا يكون لهذه الأبواب هذا التأثير، دون الشبابيك مثلا، فهذا ما لم تكن جويس تملك له إجابة أو تفسيرا. ربما لأن المقصود من أغلبها ليس النظر إلى الخارج، وإنما الانفتاح مباشرة على عتمة الغابة، أو لأنها تكشف عن بساطة البيت وخلوه من التكلف. كانت مناظر الناس إذ يطبخون أو يتفرجون على التليفزيون تأسرها، وإن علمت أن الأمور بالداخل لن تكون استثنائية من أي وجه.

وكان ما تراه إذ تنعطف إلى ممشى بيتها المعوج غير الممهد هو ذلك الباب الذي قام جون بتركيبه ليصبح إطارا لصورة بيتهما من الداخل، مضاءةً ومبعثرةً، فهناك سلم الشغل المزدوج، وخزائن المطبخ غير المكتملة، والدرج الذي لم يحطه سور بعد، والمصباح الذي يحركه جون

كيفما أراد ليكشف له ما يريد أينما كان يعمل. كان يقضي النهار كله يعمل في السقيفة، فإذا حل الظلام أرسل مساعدته إلى بيتها، ورجع هو يعمل في البيت. وما إن يسمع صوت السيارة حتى يدير رأسه للحظة في اتجاه جويس، محييا إياها. وتكون يداه في العادة مشغولتين فلا يلوح لها. جالسةً في السيارة، وقد أطفأت أنوارها، تلملم ما اشترته من بقالة، أو ما معها من بريد تحتم أن تصطحبه إلى البيت، وهي فرحة، فرحة حتى بجريها الأخير إلى الباب عبر الظلام والريح والمطر البارد. تشعر أنها تنفض عن نفسها عمل النهار، اللاهث القلق، المتخم بتوزيع الموسيقى على من لا يحفلون بها، أو يستجيبون لها. كم هو أفضل للواحدة أن تعمل في الخشب مع نفسها -فهي لم تحسب المساعدة- من أن يعمل مع صغار البشر المستعصين على كل قدرة على التوقع.

لم تقل أيا من ذلك لجون. كان يكره أن يسمع الناس يتكلمون عن مدى الأصالة والنبل والشرف في أن يعمل المرء في الخشب. أي كمال في هذا، وأي عزة!

كان يقول: كلام فارغ.

جون وجويس التقيا في مدرسة ثانوية بإحدى مدن أونتاريو الصناعية. كانت جويس صاحبة ثاني أعلى نتيجة في الفصل في اختبار الذكاء، وجون كان صاحب أعلى نتيجة في المدرسة، وربما في المدينة كلها. كان المتوقع لها أن تصبح عازفة فيولين جيدة، وذلك قبل أن تهجر الفيولين إلى التشيلو، وهو كان ينبغي أن يصبح عالما مرعبا تستعصي أعماله على الوصف في العالم العادي.

في السنة الأولى لهما في الكلية، تركا الدراسة وهربا معا. عملا هنا وهناك، وسافرا بالحافلة عبر القارة، عاشا سنة في ساحل أوريجون، تصالحا من على البعد مع آبائهم الذين كانت الدنيا قد أظلمت في أعينهم. كان الزمن تغير وما عاد يصح أن يعتبرا من الهيبيين، ولكن ذلك ما أطلقه عليهما آباؤهم. أما هما فلم يفكرا في نفسيهما قط على ذلك النحو. فما كانا يتعاطيان المخدرات، وثيابهما كانت محافظة وإن تكن رثة، وجون كان يتعمد أن يحلق ذقنه ويجعل جويس تحلق له شعر رأسه. وبعد فترة تعبا من الوظائف منخفضة الأجور فاتجها إلى أسرتيهما المحبطتين منهما يقترضان منهما ما يمكنهما به أن يسعيا لتكوين حياة أفضل. تعلم جون النجارة وأعمال الخشب، وحصلت جويس على شهادة تؤهلها لتدريس

الموسيقى في المدارس. والوظيفة التي حصلت عليها كانت في رافريفرز. اشتريا هذا البيت المتداعي بالمجان تقريبا واستقرا فيه بادئين مرحلة جديدة من الحياة. زرعا حديقة، وتعرفا بالجيران، ومنهم من كانوا لا يزالون هيبيين حقا، يزرعون في أعماق الغابة القليل من النباتات المخدرة ويصنعون عقودا من الخرز وأكياسا عشبية ويبيعونها.

أحب الجيران جون. كان لا يزال نحيلا لامع العينين، نرجسيا لكنه مستعد للإنصات. كان ذلك في الوقت الذي بدأ فيه أغلب الناس للتو يعتادون على الكمبيوتر، وكان هو يفهم فيه ولديه الصبر على شرحه لهم. أما جويس فكانت شعبيتها أقل. وكان الرأي الشائع في طريقة تدريسها للموسيقى أنها رسمية أكثر مما ينبغي.

أعدت جويس وجون العشاء وتناولا بعض النبيذ المصنوع منزليا (وكانت طريقة جون في صناعة النبيذ صارمة وناجحة). تكلمت جويس عن إحباطات يومها ومساخره. ولم يتكلم جون كثيرا، ربما لأنه كان أكثر انشغالا بالطبخ. ولكنه قد يحكي لها، حينما يجلسان لتناول الطعام، عن زبون جاء، أو عن مساعدته إيدي. قد يضحكان على شيء قالته إيدي، ولكن ليس ضحك الاستخفاف أو الاستهانة، وإن كانت جويس تظن أحيانا أن إيدي أقرب إلى حيوان أليف، أو ابنة صغيرة، غير أن إيدي إن كانت ابنة، لهما مثلا، لشغلتهما الحيرة وربما الهم عن الضحك.

لماذا؟ وبأي معنى؟ هي لم تكن غبية. قال جون إنها ليست عبقرية فيما يتعلق بالنجارة لكنها تتعلم وتتذكر ما تتعلمه. وأهم شيء أنها لم تكن ثرثارة. وذلك أكثر ما كان يخشاه حينما ظهرت له قصة ضرورة الاستعانة بمساعد. كان الحكومة قد أطلقت برنامجا جديدا، يحصل بموجبه على مبلغ معين نظير تعليمه شخصا، ومهما يكن ذلك الشخص فسوف يكون المبلغ كافيا له في أثناء تعليمه. في البداية لم يجد في نفسه الرغبة، ولكن جويس ظلت معه حتى أقنعته. كانت ترى أنهما ملتزمان تجاه المجتمع.

ربما لم تكن إيدي كثيرة الكلام، ولكنها إن تكلمت لا يمكن إيقافها.

"أنا ممتنعة عن كل المخدرات والكحوليات"، ذلك ما قالته لهما في أول لقاء. "وأنا منتمية إلى منظمة مكافحة الكحوليات وأتعافى من إدمان الكحول. نحن لا نقول أبدا إننا شفينا، لأننا لا نشفى مطلقا. وأنت لا تشفى ما بقيت حيا. عندي بنت عمرها تسع سنوات ولدت دون أب، فهي مسئولة مني تماما وأنوي أن أربيها تربية سليمة. وطموحي أن أتعلم النجارة لأنفق

على نفسي وعلى بنتي".

فيما تلقي تلك الخطبة كانت جالسة وعيناها عليهما، واحدا بعد الآخر، من وراء منضدة المطبخ. كانت شابة متينة قصيرة لا تبدو كبيرة أو محطمة بما يكفي ليكون وراءها إرث كبير من الخراب.

كتفان عريضتان، شعر كثيف على الجبهة، ذيل حصان محكم، ولا طيف ابتسامة.

قالت "وهناك شيء آخر". وفكت أزرار البلوزة طويلة الكمين وكانت ترتدي تحتها تيشيرت.

كلا الذراعين، وأعلى الصدر، والظهر -بعدما استدارت- مغطاة جميعا بالوشم. بدا وكأن جلدها صار زيا، أو كتابا كوميديا مليئا بالوجوه اللينة الماكرة المحاطة بتنانين وحيتان ولهب، ولا يستوعبها العقل، لأنها معقدة، أو ربما لأنها مرعبة. وأول ما يذهب إليه تفكيرك هو هل جسمها كله تحول بتلك الطريقة؟

قالت جويس بأكثر ما استطاعته من الحياد "كم هو مذهل!"

قالت إيدي "طيب، أنا عن نفسي لا أعرف كم هو مذهل، لكنه كان سيكلفني ثروة لو لزم أن أدفع للحصول عليه. ولكن ذلك ما كنت أعمل فيه لفترة. السبب الذي يجعلني أعرضه عليكما هو أن بعض الناس تعترض عليه. وبفرض أنني شعرت بالحر في السقيفة واضطررت أن أعمل وأنا متخففة من بعض ثيابي".

"ليس نحن" هكذا قالت جويس وهي تنظر إلى جون فهز كتفيه.

سألت إيدي إن كانت تحب تناول فنجان قهوة.

"لا، شكرا لك" ومضت ترتدي البلوزة "كثيرون في منظمة مكافحة الكحوليات يبدو وكأنهم يعيشون على القهوة، وأنا أقول لهم، أقول، لماذا تبدلون عادة سيئة بعادة سيئة؟"

لاحقا قالت جويس "غير طبيعي. تشعر لو فتحت فمك بكلمة أمامها، مهما تكن الكلمة، أنها قد تلقي عليك محاضرة فيها. لم أجرؤ أن أسأل عن الميلاد العذري مثلا".

قال جون "هي قوية. هذا هو الأساسي. نظرت إلى ذراعيها".

وعندما يقول جون "قوية" فهو يعني ما تستعمل الكلمة لتعنيه. يعني أنها قادرة على حمل لوح خشب.

يستمع جون عبر إذاعة "سي بي سي" وهو يعمل، إلى الموسيقى، والأخبار أيضًا، والتعليقات، والمداخلات الهاتفية. وأحيانا ينقل إليها تعليقات إيدي عما يستمعان إليه.

إيدي لا تؤمن بالنشوء والارتقاء.

(كان هناك برنامج واتصل بعض المعترضين على تدريس النظرية في المدارس)

ولم لا؟

"حسن، لأنه في تلك البلاد الإنجيلية" هكذا قال جون ثم تحول إلى صوت إيدي الرتيب الحازم قائلا "في تلك البلاد الإنجيلية عندهم الكثير من القردة، والقردة كانت دائما تتدلى من الأشجار ومن هنا خطرت للناس فكرة أن القردة نزلت من الشجر وتحولت إلى بشر".

قالت جويس "ولكن في المقام الأول..."

"كبري دماغك. ولا تحاولي. ألا تعرفين القاعدة الأولى في النقاش مع إيدي؟ كبري دماغك واقفلي فمك".

كانت إيدي تعتقد أيضًا أن شركات الأدوية الكبرى تعرف علاج السرطان، ولكن هناك اتفاق بينها وبين الأطباء على السكوت تماما بسبب النقود التي يكسبها الأطباء والشركات.

وعند إذاعة موسيقى "أنشودة الفرح" كانت تطلب من جون أن يقفل الراديو لأنها فظيعة، كالجنائز.

وأيضا كانت ترى أن جون وجويس -أو جويس في الحقيقة- لا ينبغي أن يتركا زجاجات النبيذ، الممتلئة بالنبيذ، واضحة هكذا على مائدة المطبخ.

قالت جويس "وهذا شغلها؟"

"واضح أنها تراه شغلها".

"متى أتيح لها أصلا أن تتفقد مائدة مطبخنا؟"

"وهي تمر ذاهبة إلى الحمام. ليس المفروض أن تبول في الغابة".

"أنا فعلا لا أرى أن من شغلها..."

"وأحيانا تدخل لتعد لنا ساندويتشات..."

"هكذا؟ هذا مطبخي. مطبخنا".

"كل ما هنالك أنها تشعر أنها مهددة أمام الشراب. لا تزال ضعيفة. وهذا شيء يمكن أنا وأنت أن نفهمه".

مهددة. الشراب. ضعيفة.

أي كلمات تلك التي يستخدمها جون؟

كان لا بدّ أن تفهم، في تلك اللحظة، حتى إذا كان هو على غير دراية بعد، بأنه يقع في الحب. يقع. هذا يشي بمدى زمني، بسقوط. ويمكن التفكير في الأمر أيضًا باعتباره سقوطا متسارعا، باعتبار أنه الآن في لحظة السقوط أو في ثانية السقوط. جون الآن لم يهوِ إلى حالة حب لإيدي. لحظة. الآن هو فيها. وذلك أمر لا يمكن تصور وقوعه، لا يمكن تصور إمكانية حدوثه، ما لم تتصوره ضربة بين العينين، مصيبة مفاجئة. ضربة القدر التي تترك الصحيح كسيحا، النكتة الشريرة التي تحيل العينين السليمتين حجرين أعميين.

شرعت جويس في إقناعه بأنه على خطأ. لم تكن لجون خبرة تذكر بالنساء. بل لا خبرة إطلاقا، اللهم إلا بها هي. كانا دائما يريان أن التجريب في كثير من العلاقات أمر طفولي، وأن الزنا خراب وهلاك. وهي الآن لا تعرف، هل ينبغي أن يلعب بذيله قليلا؟

كان قد قضى شهور الشتاء المظلمة حبيس ورشته، غير معرض إلا لنظريات إيدي الواثقة. ذلك أمر شبيه بالمرض الناتج عن تنفس الهواء العطن.

ستصيبه إيدي بالجنون، إن هو مضى قدما وتعامل معها بجدية.

قال "فكرت في هذا. لعلها أصابتني به فعلا".

قالت جويس إن هذا كلام مراهقين غبي، يجعله يظهر أبله عديم الحيلة.

"ماذا تظن نفسك، فارس مثلا من فرسان المائدة المستديرة؟ شخص جعلوه يشرب دواء مسحورا؟"

ثم قالت إنها آسفة. وقالت إن الحل الوحيد هو أن يتعاملا مع الأمر وكأنه برنامج مشترك. انتكاسة. أمر سوف ينظران إليه يوما فلا يريانه إلا مجرد خلل في زواجهما.

قالت "ونحن سنتجاوزه سالمين".

نظر إليها جون وهو بعيد، وطيب.

قال "لم يعد هناك "نحن".

كيف أمكن أن يحدث هذا؟ سألت جون، ونفسها، ثم آخرين. مساعدة نجار تدبدب وهي تمشي، وثقيلة الظل، تلبس بنطلونات واسعة وتيشيرتات قطنية و-طول الشتاء- سترة سميكة غبية معبأة بنشارة الخشب. ولها عقل لا يتزحزح من كليشيه إلا لينتقل إلى حماقة، ومنها إلى غباء، متصورة أن كل خطوة من خطى عقلها المتثاقل في الرحلة الطويلة هي قانون كوني. شخص كهذا يغلب جويس بساقيها الطويلتين وخصرها النحيل وجديلة شعرها الأسود الحريرية الطويلة. بخفة دمها وموسيقاها وترتيبها الثاني على الفصل في اختبار الذكاء.

تقول جويس "أنا سأقول لك كيف في ظني حدث هذا". وذلك بعد فترة، بعدما طال النهار، وتفتحت الزنابق داخل الغابة وبحذاء الطريق، وباتت تذهب لتدريس الموسيقى لابسة نظارة غامقة العدسات لتداري عينين تورمتا من البكاء والشرب، وبدلا من أن تسوق إلى البيت في نهاية النهار باتت تسوق إلى ولنجدون بارك، راجية أن يأتي جون ليبحث عنها، خشية أن تنتحر. (وقد فعل ذلك مرة واحدة).

قالت "أظن أن هذا حدث لأنها جاءت من الشوارع. العاهرات يملأن أجسامهن هكذا بالوشوم لأسباب مهنية، فالرجال يثيرهم هذا الأمر. لا أقصد الوشم، يعني، وهو أيضًا، بالطبع، يثيرهم الوشم أيضًا، ولكن ما أقصده هو كونهن معروضات للبيع. توفرهن. والخبرة. وهذه تزيد بماذا؟ كونها تائبة. وعليه، فالنوم الآن يكون مع مريم المجدلية، هذه هي المسألة. وهو في الجنس ذلك الطفل وأكثر، حاجة تقرف".

عندها الآن صديقات يمكنها أن تتكلم معهن بهذه الطريقة. وكلهن

عندهن قصص. كانت تعرف بعضهن من قبل، لكن ليس بهذه الطريقة. الآن يتبادلن الأسرار، ويشتركن في الشراب والبكاء. يقلن إنهن لا يمكن أن يصدَقن. الرجال. وما يفعله الرجال. شيء في غاية الغباء والقرف. لا يمكن أن يصدَقن.

ولهذا هو حقيقي.

ووسط الكلام تشعر جويس أنها بخير. بخير فعلا. تقول إنها الآن تمر فعلا بلحظات تشعر فيها بالامتنان لجون، لأنها تشعر الآن أنها حية أكثر مما كانت من قبل. شيء رهيب لكنه رائع. بداية جديدة. حقيقة عارية. حياة عارية.

ولكنها عندما كانت تستيقظ في الثالثة أو الرابعة صباحا، لم تكن تعرف أين هي بالضبط. ليس في بيتهما. فإيدي هي التي هناك الآن. إيدي وبنتها وجون. وكان هذا مفتاحا تفضله جويس شخصيا، وترى أنه قد يرجع جون إلى صوابه. انتقلت إلى شقة في البلدة تخص معلّمة في إجازة. كانت تستيقظ في الليل وأضواء لافتة المطعم الوردية المرتعشة تبرق في الناحية الأخرى من الشارع على شباكها، ملقية ضوءها على أغراض المعلمة المكسيكية العجيبة: أصص الصبار، نبتة عين القط المتدلية، البطاطين المخططة بلون الدم المتجلط. كل رؤى السكر تلك، كل ذلك الانتعاش، كان يندفع منها اندفاع القيء.

وباستثناء هذا، لم يكن يصيبها أي نوع من أوجاع ما بعد الشرب. كان بوسعها إن شاءت أن تشرب بحيرات من الكحول ثم تنام فتصحو جافة مثل ورقة مكوية.

حياتها انتهت. كارثة عادية.

الحقيقة أنها كانت لا تزال سكرانة، وإن شعرت أنها متزنة اتزان الموت. كانت معرضة لخطر أن تستقل سيارتها وتسوقها إلى البيت. لا أن تسوقها فتقع في مصرف، لأن سواقتها في تلك الآونة أصبحت بالغة البطء والرصانة، بل الخطر هو أن تسوقها وفي نهاية المطاف تركن في الساحة أسفل الشبابيك المظلمة وتصيح على جون أن كفى.

كفى! هذا خطأ. قل لها تذهب بعيدا.

تذكّر حينما نمنا في الحقل وصحونا والبقر يلوك العشب حولنا ولم نكن

ندري بالليل أن بقرا هناك. تذكر حينما استحممنا في الجدول ثلجي المياه. ونحن نجمع عيش الغراب في جزيرة فانكوفر، ونرجع بالطائرة إلى أونتاريو لنبيعه هناك وندفع ثمن تذاكر الرحلة إلى بيت أمك عندما مرضت، وكنا نحسب أنها سوف تموت. وقلنا، يا لها من نكتة، لسنا تحت تأثير المخدرات، ومع ذلك نذهب في رحلة اسمها بِرّ الوالدين.

طلعت الشمس وراحت الألوان المكسيكية تبهر عينيها ببشاعتها المؤكدة، وبعد فترة نهضت واغتسلت ووضعت على خديها البودرة وشربت قهوة جعلتها ثقيلة مثل الطين، وارتدت بعض ثيابها الجديدة. كانت قد اشترت بلوزات جديدة رديئة النوعية وجيبات هفهافة وأقراطا فيها ريش بألوان قوس قزح. وكانت تذهب لتدريس الموسيقى وقد بدت كأنها راقصة غجرية أو نادلة في حفل. كانت تضحك لكل قول وتغازل أي شخص، الرجل الذي يجهز لها الإفطار في المطعم البسيط أسفل البناية، والولد الذي يملأ سيارتها بالغاز، والموظف الذي يبيعها طوابع البريد في مكتب البريد. كانت تفكر أن جون سوف يسمع بمدى جمالها، وسعادتها، وإثارتها، كيف أنها ببساطة تطغى على جميع الرجال. بمجرد أن خرجت من الشقة صعدت خشبة المسرح، وجون كان المشاهد الأساسي، وإن يكن سبق استعماله. رغم أن جون لم يكن يوما ممن تنطلي عليهم المظاهر الاستعراضية أو محاولات الغواية، ولم يفكر قط أن في ذلك سر جاذبيتها. حتى إنهما كانا في سفرهما يحملان حقيبة ثياب مشتركة، قوامها الجوارب السميكة والجينز والقمصان الداكنة ومعاطف وندربريكرز.

تغيير آخر.

حتى مع أبلد وأصغر من تدرّس لهم، أصبح في صوتها لينٌ، وامتلأت ضحكتها مكرا، ولم يبق من سبيل لمقاومة تشجيعها. كانت تعدّ تلاميذها لحفل نهاية العام الدراسي، ولم تكن من قبل تتحمس لأمسية الأداء الجماعي تلك، إذ كانت تشعر أنها تعيق تقدم التلاميذ الموهوبين حينما تدفع بهم إلى موقف ليسوا جاهزين له. فما كان لكل ذلك المجهود والتوتر أن يفرزا إلا قيما زائفة. أما في هذا العام فكانت ترمي نفسها في غمار كل جانب من جوانب العرض. البرنامج، الإضاءة، المقدمات، وبالطبع الأداء. وكانت تقول إن ذلك لا بدّ أن يكون ممتعا. ممتعا للتلاميذ، وممتعا للجمهور. وطبعا كانت تعتمد على أن يكون جون موجودا. كانت ابنة إيدي واحدة من المشاركات في الأداء، ومن ثم فإيدي أيضًا سوف تحضر. وسيكون على جون أن يرافق إيدي.

هو الظهور الأول للثنائي جون وإيدي أمام المدينة.

الإعلان. لا مهرب لهما منه. لم يكن التحوّل الذي قاما به جديدا على الأسماع، لاسيّما بالنسبة لمن كانوا يعيشون في جنوب المدينة. ولكنه أيضًا لم يكن أمرا شائعا. وكون ما قاما به أمرا غير فضائحي لا يعني أنه غير لافت للنظر. فهناك فترة اهتمام لا بدّ منها قبل استقرار الأوضاع واعتياد الناس على الزواج الجديد. وذلك ما كان يجري، فقد كان بطلا العلاقة الجديدة يظهران وهما يدردشان، أو يلقيان التحية على الأقل، على المنبوذين في محل البقالة.

ولكن هذا لم يكن الدور الذي ترى جويس أن تلعبه، على مرأى من جون وإيدي، أو على مرأى من إيدي وحدها في الحقيقة، في أمسية الحفلة.

فما الذي كانت ترى أن تفعله؟ الله أعلم. هي لم تفكر، في أي لحظة عقل، بأن تؤثر في جون تأثيرا شديدا بحيث يرجع إلى عقله فور أن تظهر هي على المسرح، ليصفق لها الجمهور في نهاية العرض. لم تتصور أن ينفطر قلبه ويكره في نفسه حماقتها وهو يراها سعيدة مشرقة ومسيطرة لا باكية مشرفة على الانتحار. لكن ليس بعيدا عن هذا، كان ما تفكر فيه شيئا غير محدد بالضبط لكنها لم تستطع أن تتوقف لحظة عن تمنيه.

وكانت أحلى حفلة على الإطلاق. أجمع الكل على هذا. قالوا إن الحماس أكثر، والمرح أكثر، ولكن التوتر أكثر أيضًا. كانت أزياء الأطفال تتماشى مع الموسيقى التي يؤدونها. ووجوههم مزينة بحيث لا يبدو عليهم الخوف، أو يظهرون بمظهر الأضاحي.

وحينما ظهرت جويس في النهاية، كانت ترتدي فستانا حريريا أسود طويلا تلمع عليه الفضة وهي تتحرك. وكذلك خلخالا فضيا وحلية في شعرها السائب، فخالط التصفيق بعض الصفير.

أما جون وإيدي فلم يحضرا.

(٢)

تقيم جويس وماث حفلة في بيتهما بـ فانكوفر الشمالية.

وذلك احتفالا بعيد ميلاد ماث الخامس والستين. ماث متخصص في علم النفس العصبي، وعازف فيولين هاو وجيد. ومن هنا كان لقاؤه بجويس، التي أصبحت الآن عازفة تشيلو محترفة، وزوجة ماث الثالثة.

ولا تكف جويس عن قولها "انظر إلى كل هؤلاء الناس هنا، إنها قصة حياة فعلا".

هي الآن امرأة نحيلة حريصة على مظهرها ذات شعر أشيب بلون القصدير، وانحناءة بسيطة لعلها ناجمة عن إفراطها في تدليل آلتها الموسيقية الضخمة، أو هي ربما نتاج تعودها على التركيز في الاستماع، والتأهب للكلام.

في الحفل، بالطبع، زملاء ماث في الكلية الذين يعتبرهم أصدقاء شخصيين. وهو وإن يكن كريم النفس فإنه شخص صريح، وصراحته هذه سبب وجيه لئلا يكون كل الزملاء صالحين للاندراج في فئة الأصدقاء الشخصيين. هناك زوجته الأولى، سالي، ومعها مرافقتها. كان مخ سالي قد أصيب إثر حادث سير وهي في التاسعة والعشرين، ومن ثم فهي ربما لا تعرف من يكون ماث، أو من يكون أبناؤها الثلاثة الكبار، أو أن هذا هو البيت الذي عاشت فيه أيام كانت زوجة شابة. ولكن أخلاقها اللطيفة وعذوبتها بين الناس بقيت كما هي لم تمس، فهي تبتهج بكل شخص جديد تقابله، وإن كانت التقت به فعلا، قبل خمس عشرة دقيقة. أما مرافقتها فاسكتلندية ضئيلة منضبطة توضح أنها غير معتادة في الغالب على هذا النوع من الحفلات الصاخبة وأنها لا تشرب في أثناء العمل.

زوجة ماث الثانية، دوريس، عاشت معه أقل من عام، رغم أنها بقيت زوجة له ثلاث سنين. وهي حاضرة الحفل مع عشيقتها لويس التي تصغرها بكثير، وابنتهما الصغيرة التي وضعتها لويس قبل شهور قليلة. بقيت دوريس صديقة لماث، وصديقة خاصة لأصغر أبنائه من سالي، وهو تومي الذي كان لا يزال صغيرا حينما تزوجت أباه فبقي في رعايتها. ابنا ماث الكبيران حاضران ومعهما أبناؤهما وأمّا أبنائهما، رغم أن واحدة منهما لم تعد زوجة لذلك الأب الذي حضر وبصحبته عشيقته الحالية وابنها الذي تشاجر مع أحد أبناء العائلة على الدور في الجلوس على الأرجوحة.

تومي أحضر معه لأول مرة حبيبه جاي الذي لم ينطق كلمة بعد، مما جعل تومي يقول لجويس إن جاي غير معتاد على العائلات.

تقول جويس "حاسة به. مر علي وقت كنت مثله في هذا". تضحك جويس، ونادرا ما تتوقف عن الضحك وهي توضح وضع الأعضاء الرسميين والثانويين فيما يطلق عليه ماث العشيرة. ليس لديها أبناء، رغم أن لها زوجا سابقا، هو جون الذي يعيش على الساحل في مدينة صناعية

صغيرة زال مجدها. دعته إلى الحفل لكنه لم يستطع المجيء. فقد كان اليوم يوم عمادة حفيد زوجته الثالثة. ووجهت بالطبع دعوة للزوجة نفسها، تشارلين التي تدير مخبزا، وهي التي ردت برسالة لطيفة حول العماد مما جعل جويس تقول لماث إن جون ربما يكون قد تدين.

"كنت أتمنى فعلا لو أمكنهما المجيء" هكذا تقول جويس لواحد من الجيران (وقد دعا الجيران تجنبا لأي شكوى من الضوضاء). "في هذه الحالة كنت لأستمتع بنصيبي من التعقيدات. كانت هناك زوجة ثانية ولكنني لا أعرف أين هي، ولا أظنه هو نفسه يعرف". الطعام كثير، منه ما أعدته جويس وماث، ومنه ما جاء به المدعوون، وكثير من النبيذ والعصائر خفيفة الكحول للأطفال، والعصائر الكحولية الحقيقية التي ابتكرها ماث إكراما للأيام الخوالي التي كان الناس يشربون فيها بحق. يقول إنه أعده في صفيحة قمامة مغسولة، مثلما كانوا يفعلون أيام زمان، ولكن الناس الآن يشمئزون من شرب هذا. وأغلب الشباب عموما لا يقتربون منه.

المساحات ممتدة. هناك كروكيه لو أحب أحد أن يلعب، والأرجوحة موضع النزاع ترجع إلى أيام طفولة ماث، وقد استعادها من الجراج. أغلب الأطفال لم يروا من الأراجيح إلا أراجيح الحدائق والأراجيح البلاستيكية في أفنية البيوت الخلفية. ومن المؤكد أن ماث من أواخر الناس في فانكوفر الذين لم تزل لديهم أرجوحة الطفولة، ومن أواخر من لا يزالون يعيشون في البيت الذي نشأوا فيه، وهو في حالة ماث بيت على طريق وندسور على منحدر جبل جراوز، وعلى حافة ما كان يطلق عليه ذات يوم الغابة. الآن أغلب البيوت تتجاوز هذا البيت، وأغلبها كالقلاع ذات جراجات هائلة. يقول ماث إن نهاية هذا البيت اقتربت. الضرائب مرعبة. سينتهي حتما، ويقوم مكانه مسخان من أي نوع.

لا تستطيع جويس أن تتخيل حياتها مع ماث في أي مكان آخر. فدائما يجري الكثير هنا. ناس يأتون وناس يذهبون وقد تركوا أشياء (من بينها أطفال). رباعية ماث الوترية في غرفة المكتب عصر كل أحد، ملتقى الأخوية التوحيدية [التي تنكر التثليث] في الصالة مساء كل أحد، استراتيجيات حزب الخضر التي يتم التخطيط لها في المطبخ. وجماعة لعبة القراءة تقوم أمام البيت بتمثيل كتاب ما، بينما ثمة من يريق داخل المطبخ تفاصيل دراما حقيقية (وكان حضور جويس مطلوبا في كلا المكانين). وماث وبعض زملاء الكلية منكبون على وضع استراتيجية في المكتب خلف باب مغلق.

وكثيرا ما تلاحظ جويس أنها لا تكون وماث وحدهما خارج السرير.

"ويكون هو منهمكا في قراءة شيء مهم"

بينما تكون هي منهمكة في قراءة شيء غير مهم.

ولا يهم. فهو يحمل قدرا هائلا من المرح والإقبال لعلها بحاجة إليه. حتى في الكلية -حيث ينهمك مع طلبة الدراسات العليا، والزملاء، والأعداء المحتملين، والكارهين- يبدو لها أنه يتحرك وسط دوامة لا يكاد يكون بوسعه أن يتدبر أمرها. وذلك كله بدا لها يوما مريحا، ولعله يبقى كذلك بالنسبة لها لو توفر لها من الوقت ما يجعلها تنظر إليه من الخارج. لعلها، من الخارج، تحسد نفسها. ولعل هناك من يحسدونها، أو يعجبون بها، ويرون أنها ملائمة له تماما، بكل ما لديها من أصحاب والتزامات وأنشطة، ومهنة أيضًا بطبيعة الحال. فمن ينظر إليها الآن لا يتصور أنها أول ما وفدت على فانكوفر كانت تشعر بحالة من الوحشة لدرجة أن تقبل الخروج مع عامل المغسلة الذي كان يصغرها بعقد من السنين. ويكون هو أيضًا الذي يهجرها.

هي الآن تمشي على العشب وقد حملت شالا، متجهة إلى السيدة فاولر العجوز، والدة دوريس، الزوجة الثانية، والسحاقية على آخر الزمن. لا تستطيع السيدة فاولر الجلوس في الشمس، ولكنها ترتعش إن جلست في الظل. وفي اليد الأخرى تحمل كأس عصير ليمون طازجا للسيدة جوان مرافقة سالي المنضبطة. فقد وجدت السيدة جوان أن شراب الأطفال قليل الكحول سكري أكثر مما ينبغي. وهي لا تسمح لسالي بشرب أي شيء، خشية أن يقع على فستانها الجميل، أو أن ترمي به أحدا في نوبة مرح. ولا يبدو أن سالي تبالي بهذا الحرمان. وفي ثنايا رحلتها على المرج احتكت بدائرة من الشباب الجالسين، تومي وصاحبه الجديد وأصدقاء رأتهم مرات في البيت، وآخرين لا تعتقد أنها سبق أن رأتهم على الإطلاق.

تسمع تومي يقول "لا، أنا لست إيزادورا دنكان".

يضحكون جميعا.

تدرك أنهم لا بدّ يلعبون تلك اللعبة الصعبة المتعالية التي كانت شائعة قبل سنوات. ماذا كان اسمها؟ تظن أن الاسم يبدأ بالباء. ترى أنهم الآن غير نخبويين، وأن هذه اللعبة لا تلائمهم. بوزتيهود. تقولها بصوت مرتفع.

"تلعبون الـ بوزتيهود؟".

يقول تومي "أصبت في حرف الباء على الأقل" وضحك ليضحك الآخرون.

يقول. شوفي. عروستي، ليست بكماء. لكنها موسيقية. ألم يكن بوزتاهودي موسيقيا؟"

قالت جويس بشيء من السخرية "اسمه بوزتيهود يا شاطر، مشى خمسين ميلا ليسمع باخ وهو يعزف على الأرغن. نعم، كان موسيقيا".

قال تومي "اللعنة بجد".

تقوم فتاة من الدائرة، فيناديها تومي

"إلى أين يا كرستي، ألن نكمل اللعب؟"

"سأرجع. فقط سأذهب لأختبئ في الأكمة أنا وسيجارتي القذرة".

هذه الفتاة ترتدي فستانا أسود مكشكشا وقصيرا يوشك المرء أن يحسبه قميص نوم، أو قطعة ملابس داخلية. وعليها سترة سوداء ضئيلة وقصيرة الياقة. شعر أصفر فاتح، وجه شاحب مراوغ، حاجبان مختفيان. كرهتها جويس بمجرد أن وقعت عليها عيناها. تبدو لها من الفتيات اللاتي لا دور لهن في الحياة إلا إقلاق راحة الآخرين. تتعلق برقبة أحدهم متطفلةٍ -وجويس واثقة أنها متطفلة- على حفلة أناس لا تعرفهم، لكنها تشعر أن من حقها أن تحتقرهم، بسبب ما لديهم من مرح بسيط (ضحل؟) وحفاوة بورجوازية. (ألا يزال الناس يستخدمون لفظة بورجوازي؟)

ثم إنه ليس هناك ما يوحي بأن أي ضيف لا يستطيع أن يدخن ما يشاء حيثما يشاء. فلا وجود لهذه السخافات حتى داخل البيت نفسه. تشعر جويس أن الكثير من مرحها تبدد.

"تومي" تناديه فجأة. "تومي، ممكن لو سمحت تعطي هذا الشال للجدة فاولر؟ الظاهر أنها تشعر بالبرد. والليمون للسيدة جوان، عارفها، التي مع أمك".

لا ضرر من تذكيره ببعض العلاقات والمسئوليات.

بسرعة ورشاقة يكون تومي على قدميه.

يقول لأصدقائه "بوتيتشيلي" وهو يأخذ عنها الشال والكأس.

"آسفة. لم أكن أقصد أن أفسد اللعبة".

"لسنا مهرة فيها على أي حال". يقولها ولد تعرفه. جوستان.

"لسنا أذكياء مثلما كنتم".

تقول جويس "مثلما كنا، صح". ثم تشعر بالحيرة للحظة ، فيم تفعل وإلى أين تذهب.

يغسلون الأطباق في المطبخ. جويس وتومي وصديقه الجديد جاي. الحفلة انتهت. وذهب الناس بالأحضان والقبلات والصيحات الودودة، والبعض يحمل صواني طعام لا مكان له عند جويس في الثلاجة. رمت بواقي السلاطة الذابلة والكعك بالكريمة وفطائر البيض المسلوق.

لم يؤكل من فطائر البيض المسلوق إلا القليل على أي حال. راحت عليها.

كولسترول أكثر من اللازم.

تقول جويس وهي ترمي ملء صينية في القمامة "خسارة. كل هذا العمل في القمامة. لعلها تذكّر الناس بعشاءات الكنيسة".

يقول جاي "جدتي كانت تخبزها لنا" وتلك أول كلمات يوجهها لجويس فترى على وجه تومي نظرة امتنان. هي نفسها ممتنة، وإن وضعها في فئة واحدة مع جدته.

يقول تومي "أكلنا الكثير منها وكانت لذيذة". ظل هو وجاي يعملان معها نحو نصف ساعة في جمع الأكواب والأطباق وأدوات المائدة المبعثرة في المرج وفي الشرفة وفي شتى أرجاء البيت، حتى في أبعد الأماكن احتمالا كأجواف المزهريات وبين حشايا الكنب.

ملأ الصبيان -هي تراهما صبيين- غسالة الأطباق ببراعة ما كان يمكن أن تتوفر لها وهي في هذه الحالة الرثة، ووضعا الصابون على المياه الساخنة، وجهّزا مياه الشطف الباردة في الأحواض لغسل الكؤوس.

قالت جويس "كان يمكن أن نستبقيها، الكؤوس، لجولة تالية في غسالة الأطباق".

لكن تومي قال لا.

"ما كنت لتفكري في وضعها في غسالة الأطباق لو لم تفقدي سلامة عقلك بعد هذا اليوم المتعب الطويل". جاي يغسل، وجويس تجفف وتومي ينقل. لا يزال يتذكر أين يوضع كل شيء في هذا البيت. وفي السقيفة بالخارج ينهمك ماث مع زميل من القسم في حوار مهلك. لا يبدو أنه سكران للغاية مثلما بدا في أثناء فترة الأحضان والوداع قبل وقت قصير. تقول جويس "محتمل جدا على فكرة أن أكون قد فقدت سلامة عقلي. فأنا الآن حالا لا أفكر إلا في شيء واحد، أن أرمي كل هذا القرف وأشتري بلاستيك".

يقول تومي "أعراض ما بعد الحفلة. كلنا نمر بها".

تقول جويس "ومن إذن تلك الفتاة ذات الفستان الأسود؟ التي قامت في أثناء اللعب".

"كريستي؟ لا بد أنك تقصدين كريستي. كريستي أوديل يا ستي هي زوجة جوستان، لكنها تحمل اسمها الأصلي. عارفة جوستان؟".

"طبعا عارفة جوستان، لكن لا أعرف أنه تزوج".

"يكبرون يا أختي، الزمن". يقول تومي ممازحا.

ويضيف "جوستان ثلاثون سنة. وهي غالبا أكبر".

يقول جاي "قطعا أكبر".

تقول جويس "بنت تبدو مثيرة للاهتمام. ما حكايتها؟"

"كاتبة. معقولة".

ينحني جاي على الحوض مصدرا صوتا لا تستطيع جويس أن تفسره.

"ميالة إلى العزلة" يقول تومي، محدثا جاي.

"صح؟ موافق؟"

يقول جاي "فاكرة نفسها حاجة".

يقول تومي "والله الست نشرت كتابها الأول".

"نسيت اسمه. عنوان من نوعية كيف تصدر كتابا، لا أظن أنه كان

عنوانا جيدا. ولكن الواحد يصدر كتابه الأول، ولفترة يتصور أنه شيء مهم".

بعد أيام قليلة، وبينما تمر جويس بمتجر كتب في لونسديل، ترى صورة البنت على ملصق، واسمها أيضًا، كريستي أوديل. ترتدي قبعة سوداء، ونفس الجاكت الأسود الذي كانت ترتديه في الحفل. محبوك، صارم، ياقته قصيرة للغاية.

ومع أنه لا يوجد لديها ما تستعرضه على الإطلاق، فهي تحملق في الكاميرا، وعلى وجهها نظرة اتهام بعيدة جريحة كئيبة.

أين رأتها جويس من قبل؟ طبعا في الحفلة.

لكن حتى في الحفلة، وفي غمرة الكراهية التي قد لا يكون لها ما يبررها، شعرت أنها سبق أن رأت ذلك الوجه.

تلميذة؟ كان لها الكثير للغاية من التلميذات.

تدخل المتجر وتشتري نسخة من الكتاب.

"كيف لنا أن نعيش". دون علامة استفهام. وقالت لها المرأة التي باعتها إياه "وعارفة لو رجعت به يوم الجمعة بين الثانية والرابعة ظهرا، ستكون الكاتبة موجودة وتوقعه لك".

"فقط لا تنزعي الملصق الذهبي لنعرف أنك اشتريته من عندنا".

لم تفهم جويس قط شغلة الاصطفاف لإلقاء نظرة على الكاتب والذهاب بكتابك وقد كتب فيه اسم شخص غريب. لذلك تهمهم بأدب همهمة لا يفهم منها قبول أو رفض.

هي أصلا لا تعرف هل ستقرأ الكتاب أم لا. ففي اللحظة الراهنة لديها سيرتان تقرأ فيهما وتثق أنهما أقرب إلى ذائقتها مما سيكون عليه هذا الكتاب.

كيف لنا أن نعيش، مجموعة قصصية، لا رواية. وهذا بحد ذاته محبط. هذا يقضي على سلطة الكتاب ويجعل الكاتبة تبدو مجرد شخص معلق على أبواب الأدب، بدلا من أن يكون متربعا بالداخل.

ومع ذلك تصطحب جويس الكتاب إلى سريرها في تلك الليلة وتنظر بدافع من الواجب إلى الفهرست، فيصادفها في منتصفه عنوان يلفت

نظرها

"كيندرتوتنليدر"

ماهلر. أرض مألوفة. بطمأنينة تنتقل إلى هذه الصفحة. ثمة شخص -ولعله الكاتبة نفسها- تلظف وترجم عنوان هذا العمل الموسيقي لماهلر:

"أغنيات الموت والطفولة".

ماث بجانبها يشخر.

تعرف أن شخرته اعتراض على شيء يقرؤه ويريدها أن تسأله عنه. فتسأله.

"يا يسوع. هذه حماقة".

تضع **كيف لنا أن نعيش** مقلوبا ومفتوحا على صدرها، وتصدر أصواتا تبين له بها أنها منصتة.

على الغلاف الخلفي للكتاب نفس صورة الكاتبة، ولكنها هنا دون قبعة. غير مبتسمة لا تزال، وعابسة، ولكنها أقل ادعاء. بينما يتكلم ماث، ترفع جويس ركبتيها فترفع الكتاب وتقرأ جمل السيرة الذاتية على الغلاف الخلفي.

نشأت كريستي أوديل في رافريفرز، وهي بلدة صغيرة على ساحل كولمبيا البريطانية. تخرجت في برنامج جامعة كولمبيا البريطانية للكتابة الإبداعية. تعيش في فانكوفر بكولمبيا البريطانية مع زوجها جوستان، وقطها تربيوس. وبعدما يوضح لها ما في الكتاب الذي معه من حماقة، يرفع ماث عينيه لينظر إلى كتابها ويقول "هذه هي الفتاة التي حضرت حفلتنا".

"نعم، اسمها كريستي أوديل. زوجة جوستان".

"ولها كتاب؟ فيم؟"

"قصص؟"

"أوه".

يستأنف قراءته، ثم يعود بعد لحظة فيسألها "وحلو الكتاب؟"

"لا أعرف بعد".

"كانت تعيش مع أمها" تقرأ "في بيت بين الجبال والبحر...".

ولا تكاد جويس تقرأ هذه الكلمات حتى يمنعها الانزعاج من أن تواصل القراءة. أو تواصلها وزوجها بجوارها. تغلق الكتاب وتقول "أظن أنني سوف أنزل قليلا".

"إذا كان النور يضايقك سأطفئه حالا".

"لا. أعتقد أني أريد أن أشرب الشاي. أراك بعد قليل".

"في الغالب سأكون نمت".

"إذن تصبح على خير".

"وأنت من أهله".

تقبله وتأخذ الكتاب معها.

كانت تعيش مع والدتها في منزل بين الجبال والبحر. وقبل ذلك كانت تعيش مع مسز نولاند التي تدير بترخيص من الدولة بيتا لرعاية الأطفال المحرومين من رعاية ذويهم. كان عدد الأطفال في بيت مسز نولاند يتغير من وقت لوقت، ولكنهم في أي وقت كثيرون للغاية. ينام الصغار منهم في أسرّة توضع في وسط الغرفة، والكبار في مهاد توضع على جانبي السرير بحيث لا يقع الصغار. وفي الصباح يرن جرس الاستيقاظ، إذ تقف مسز نولاند في مدخل البيت لترنه، وحينما ترنه لمرة ثانية يكون المفترض بك أن تكون ذهبت للتبول وغسل الوجه ثم اللبس والاستعداد للإفطار. كان يفترض بالكبار أن يساعدوا الصغار ثم يقوموا بترتيب الأسرّة. وفي بعض الأحيان يكون الصغار النائمون في الأسرة الوسطى قد بللوا أسرتهم إذ يصعب عليهم أن يقوموا في الوقت المناسب ويتجاوزوا الكبار. فكان من الكبار من يشي بهم، ولكن بعض الكبار كانوا لطافا فكانوا يرفعون الملاءات وينشرونها لتجف، وأحيانا كنت ترجع بالليل فلا تجدها جافة تماما. وذلك أغلب ما تذكره عن بيت السيدة نولاند.

ذهبت بعد ذلك لتعيش مع أمها فكانت أمها تصطحبها كل ليلة إلى اجتماعات منظمة مكافحة الكحوليات. ولم يكن ثمة بديل من اصطحابها معها، إذ لم يكن يوجد من تتركها معه. وفي المنظمة كانت هناك علبة مكعبات ليلعب بها الأطفال لكنها لم تكن تحب المكعبات كثيرا. وبعدما

بدأت تدرس آلة الفيولين في المدرسة، كانت تصطحب آلة ابنتها معها إلى تلك الاجتماعات. لم يكن بوسعها أن تعزف هناك، وكان لزاما عليها أن تبقى متشبثة فيها طول الوقت لأنها مستعارة من المدرسة. وحينما كان صوت الناس يعلو كثيرا كان يتسنى لها أن تتدرب بصوت خافت.

كانت دروس الفيولين تعطى في المدرسة. وإذا لم تكن لديك رغبة في تعلم العزف على آلة موسيقية، فيمكنك أن تمسك المثلث، ولكن المعلمة كانت تميل أكثر إلى أن تتعلم آلة أصعب. كانت المعلمة امرأة طويلة ذات شعر بني تصففه عادة في ضفيرة واحدة طويلة على ظهرها، ولها رائحة غير بقية المعلمات. بعضهن كن يضعن عطرا، أما هي فلم تفعلها قط. كانت لها رائحة الخشب، أو الموقد، أو الشجر. ولاحقا تعتقد الفتاة أنها رائحة الأرز المسحوق. بعدما ذهبت أم الفتاة للعمل مع زوج المعلمة باتت لها رائحة مماثلة، لكنها ليست مماثلة تمام التماثل. بدا أن الفارق هو أن للأم رائحة الخشب، بينما للمعلمة رائحة الخشب السابح في الموسيقى.

لم تكن البنت موهوبة للغاية، لكنها كانت تجتهد في التدريب. ولم تكن تفعل ذلك حبا في الموسيقى. بل حبا في المعلمة، ولا شيء آخر.

تضع جويس الكتاب على مائدة المطبخ وتنظر من جديد إلى صورة الكاتبة. هل في الوجه أي شيء من إيدي؟ لا شيء. لا شيء في الشكل أو التعبير.

تنهض وتحضر البراندي وتصب قليلا منه على الشاي. تفتش في عقلها عن اسم ابنة إيدي. مؤكد ليس كريستي. لا تتذكر أي مرة أحضرتها فيها إيدي إلى البيت. وفي المدرسة كانت التلميذات اللاتي تتعلمن الفيولين كثيرات للغاية.

لا يعقل أن البنت كانت عديمة الموهبة تماما، وإلا لوجهتها جويس إلى آلة أقل صعوبة من الفيولين. ولا يعقل أيضًا أنها كانت موهوبة وإلا لعلق اسمها. وجه فارغ. مجرد بقعة من طفولة أنثوية. رغم شيء ما تعرفت عليه جويس في وجه البنت، المرأة، الكبيرة.

ألا يحتمل أنها جاءت مع إيدي عندما كانت تأتي أحيانا يوم السبت لمساعدة جون؟ أو حتى عندما كانت إيدي تأتي كأنها زائرة من نوع ما، لا للعمل بل للاطمئنان على الشغل، أو للمساعدة الطفيفة. تتطفل لترى ما الذي يفعله جون، وتقتحم أي حوار يجريه مع جويس في يوم إجازتها

العزيز.

كرستين. طبعا. هو ذاك. ويترجم ببساطة إلى كرستي.

لا بدّ أن كرستين كانت بعيدة بطريقة أو بأخرى عن العلاقة، لا بدّ أن جون كان يذهب إلى الشقة، مثلما كانت إيدي تمرّ على البيت. ولا بدّ أن إيدي كانت تستدرج الطفلة.

كيف ترين جون؟

كيف ترين بيت جون؟

ألن يكون ظريفا لو ذهبنا لنعيش في بيت جون؟

ماما وجون يحبان بعضهما جدا، وحينما يحب الناس بعضهم جدا يريدون أن يعيشوا في بيت واحد. معلمة الموسيقى وجون لا يحبان بعضهما بقدر ما يحب جون وماما بعضهما ولذلك ستعيشين أنت وماما وجون في بيت جون ومعلمة الموسيقى سوف تذهب لتعيش في شقة.

وكل هذا خطأ: إيدي، ولنعطها حقها، ما كانت لتثرثر بكل هذا الهراء.

تتصور جويس أنها تعرف المنعطف الذي سوف تسلكه القصة. سوف تحار الطفلة وترتبك وسط صفقات الكبار وخداعهم، ونقلهم إياها من هنا إلى هناك. ولكنها تتناول الكتاب من جديد فلا تكاد تصادف ذكرا للانتقال من مكان إلى مكان.

إنما يدور كل شيء حول حب الطفلة للمعلمة.

يوم الخميس، هو يوم حصة الموسيقى، أهم أيام الأسبوع، ولا تعتمد سعادة البنت أو شقاؤها على شيء إلا على نجاحها في الأداء أو فشلها فيه، وملاحظة المعلمة لذلك. وكلا الأمرين صعب الاحتمال. قد يأتي صوت المعلمة محسوبا، طيبا، وكلامها ممتلئا بالنكات للتغطية على ضجرها وإحباطها. وتكون البنت إذن في غاية البؤس. أو تبدو المعلمة بغتة مرحة وظريفة، "هايلة، هايلة. اليوم كنت ممتازة" فتفرح الطفلة إلى حد أن تتقلص عضلات بطنها.

ثم جاء يوم الخميس الذي وقعت فيه البنت في الفناء وانخدشت ركبتها. راحت المعلمة تنظف الجرح بمنديل مبلول ودافئ، وصوتها الناعم يقول إن الجرح بحاجة إلى علاج فيما تمتد يدها إلى طبق الحلوى الذي

تشجع به التلميذات.

"أي الألوان تحبين؟"

"أي لون".

أهذه هي بداية التغير؟ هل السبب هو الربيع، والاستعدادات لحفل آخر السنة؟

تشعر الطفلة أن الاختيار يقع عليها. ستكون عازفة الانفراد.

هذا يعني أن عليها أن تبقى بعد المدرسة أيام الخميس للتدريب، وبذلك تفوتها الحافلة المدرسية التي تذهب بها من المدينة إلى البيت الذي تعيش فيه الآن هي وأمها. المعلمة هي التي ستقوم بتوصيلها. وفي الطريق تسأل الطفلة إن كانت متوترة بسبب الحفلة.

يعني.

تقول المعلمة، طيب، عليها أن تتدرب على التفكير في شيء يكون لطيفا بحق. كطائر يحلق في السماء. ما الطائر الأحب لديها؟

الأحب مرة أخرى. لا تجد الطفلة في رأسها شيئا، لا تستطيع أن تفكر ولو في طائر واحد. ثم، "غراب؟"

تضحك المعلمة "ماشي، غراب. غراب، فكري في غراب. قبل أن تبدئي العزف بالضبط فكري في غراب".

وربما من قبيل تعويض الطفلة عن الضحكة وقد استشعرت خزيها، تقترح المعلمة المرور بـ ولنجدن بارك لتريا إن كان كشك الآيس كريم فتح مع اقتراب الصيف.

"هل يقلقون إذا لم ترجعي إلى البيت مباشرة؟"

"يعرفون أنني معك".

الكشك فاتح، لكن الاختيارات محدودة. لم يجلبوا بعد النكهات الأحلى. تختار الطفلة الفراولة -وقد قررت هذه المرة أن تكون مستعدة- وهي في حالة نشوة وفرحة وابتهاج. والمعلمة تختار الفانليا مثلما يفعل أغلب الكبار، ولو أنها تمزح مع البائع طالبة منه أن يسرع بعرض آيس كريم الزبيب وإلا فإنها لن تحبه.

ربما في ذلك الوقت يقع تغيّر آخر. فبسبب الاستماع إلى المعلمة وهي تتكلم بتلك الطريقة وبذلك الصوت الرقيق الشبيه بصوت البنات الكبيرات، تهدأ البنت. ومنذ ذلك الحين يقل تأثير الانبهار عليها، وتبقى سعيدة سعادة كاملة. يمضيان بالسيارة إلى المرفأ لمشاهدة العوامات، وتقول المعلمة إنها طالما حلمت بالعيش في عوامة. تقول، ألن يكون هذا لطيفا، وطبعا توافقها البنت. تختاران العوامة التي تروق لهما. مصنوعة يدويا ومطلية بالأزرق الفاتح وفيها صف شبابيك صغيرة معلق فيها صف من الأصص الممتلئة بزهور الجرنوقي.

يفضي هذا إلى حديث عن البيت الذي تعيش فيه البنت الآن، البيت الذي كانت المعلمة تعيش فيه. وبطريقة ما، وهما تتحركان بعدها بالسيارة، ينفتح الموضع نفسه من جديد. تقول البنت إنها معجبة بأن تكون لها غرفة مستقلة، ولكنها لا تحب الظلام بالخارج. أحيانا تتصوّر أنها تسمع أصوات حيوانات برية عند شباكها.

أي حيوانات برية؟

دببة، فهود. لكن أمها تقول إن هذه الحيوانات موجودة في أعماق الغابة وتنهاها عن الدخول إلى هناك.

"وهل تجرين إلى سرير أمك عندما تسمعين هذه الأصوات؟"

"المفروض ألا أفعل هذا".

"يا إلهي، ولم لا؟"

"جون يكون هناك".

"وما رأي جون في الدببة والفهود؟"

"يظن أنها مجرد غزلان".

"وهل غضب من ماما بسبب ما قالته لك؟"

"لا".

"أظن أنه لا يغضب".

"مرة واحدة تقريبا غضب. عندما قمت أنا وماما ورمينا كل النبيذ في الحوض".

تقول المعلمة إن الخوف من الغابة طول الوقت هكذا أمر مؤسف. تقول للبنت، بوسعك أن تسيري في الغابة ولن تضايقك الحيوانات، خصوصا إذا كنت تصدرين ضوضاء، وأنت طول الوقت تصدرين ضوضاء. تعرف الطرق الآمنة وتعرف أسماء جميع الزهور البرية الموشكة في ذلك الوقت على التفتح. بنفسج الناب، والبنفسج القرمزي، وأبوالحناء الصاحي وزنابق الشوكولاتة.

"أعتقد أن لها اسما آخر غير زنابق الشوكولاتة لكن أحب أن أسميها بهذا الاسم. له وقع لذيذ. طبعا ليس له أي علاقة بطعمها، لكن له علاقة بشكلها فقط. شكلها يشبه الشوكولاتة تماما لكن عليها رشة خفيفة من التوت المهروس. نادرة جدا لكنني أعرف مكان البعض منها".

تضع جويس الكتاب مرة ثانية. الآن، الآن، وضعت يدها فعلا على اللعبة، الآن تستشعر الهول القادم. الطفلة البريئة، والمعلمة الخبيثة اللئيمة، والغواية. كان ينبغي أن تعلم. هذا كله رائج هذه الأيام، وللرائج سطوة.

الغابة، زهور الربيع. ها هنا سوف تطغم الكاتبة بإبداعها القبيح ما أخذته من الحياة الحقيقية من ناس وأحداث، لأنها تتكاسل عن الابتكار ولكنها لا تتكاسل عن الإيذاء.

بعض ما في القصة حقيقي لا شك. فهي تتذكر أشياء كانت نسيتها. توصيل كرستين إلى البيت، وعدم التفكير فيها لحظة بوصفها كرستين، بل هي ابنة إيدي وحسب. تتذكر أنها لم تقو مرة على دخول الفناء لكنها كانت تنزل الفتاة على حافة الطريق ثم تسوق لنحو نصف ميل إضافي قبل أن تجد مكانا تدور منه وترجع. لا تتذكر أي شيء عن الآيس كريم. ولكن كانت هناك عوامة مطابقة تماما للراسية في المرفأ. حتى الزهور، والاستجواب الرهيب الخبيث للطفلة ـ قد يكون هذا أيضًا حقيقيا.

لا بد أن تكمل. تود لو تضيف المزيد من البراندي، لكنها مرتبطة ببروفة في التاسعة صباحا. ولا أي شيء من هذا. أخطأت مرة أخرى. لا ذكر في القصة مرة أخرى لزنابق الشوكولاتة والغابة، ولا لحفل آخر العام. المدرسة انتهت. وفي صباح الأحد بعد آخر أسبوع في الدراسة تستيقظ الطفلة مبكرة. تسمع صوت المعلمة في الفناء فتتجه إلى شباكها. سيارة المعلمة هناك، والشباك مفتوح، والمعلمة تكلم جون. سيارة المعلمة تسحب خلفها مقطورة من مقطورات "يو هاول". جون حافي القدمين، عاري الصدر، لا يرتدي غير الجينز. ينادي على أم الطفلة فتأتي من باب المطبخ وتمشي

بضع خطوات في الفناء لكنها لا تصل إلى السيارة. ترتدي أحد قمصان جون الذي تستخدمه كقميص نوم. تلبس دائما ملابس طويلة الأكمام لتداري وشومها.

الحوار حول شيء في الشقة يعد جون بأن يذهب ويأخذه. تناوله المعلمة المفاتيح. ثم يتكلم جون وأم الطفلة محاولين إقناعها بأن تأخذ لنفسها بعض الأشياء. لكن المعلمة تضحك بغير سرور وتقول "كله لكم". وسرعان ما يقول جون "أوكيه. أراك على خير" وتكرره المعلمة "أراك على خير"، ولا تقول أم الطفلة أي شيء يمكن تبينه. تضحك المعلمة مثل ضحكتها السابقة ويساعدها جون على الدوران في الفناء بسيارتها والمقطورة التي وراءها. وتكون الطفلة في ذلك الوقت نازلة تجري ببجامتها على السلم، رغم أنها تعرف أن المعلمة ليست في مزاج يطيب فيه الحديث إليها.

تقول أم الطفلة "تأخرتِ. وهي كان لا بذ أن تلحق بالعبارة".

صوت بوق السيارة، جون يرفع يده، ثم يرجع عبر الفناء ويقول لأم الطفلة "خلاص".

تسأل الطفلة إن كانت المعلمة سوف ترجع فيقول لها "احتمال بعيد".

ونصف صفحة أخرى لتزايد فهم الطفلة لما يجري. ففيما هي تكبر تسترجع أسئلة معينة، تتذكر ما كان يجري من استجوابات تبدو وكأنها عفوية. معلومات -تافهة فعلا في حقيقة الأمر- عن جون (الذي لا تسميه في القصة جون) وعن أمها. متى كانا يستيقظان في الصباح؟ ما الذي يحبان أن يأكلاه وهل كانا يطبخان معا. ما الذي يستمعان إليه في المذياع؟ (لا شيء، فقد اشتريا جهاز تليفزيون).

ما الذي كانت تسعى إليه المعلمة؟ هل كانت ترجو أن تسمع أخبارا سيئة؟ أم فقط كان بها جوع إلى أن تسمع أي شيء، أن تكون على اتصال بشخص ينام تحت نفس السقف، ويأكل على نفس المائدة، وقريب بصفة يومية من هذين الشخصين؟

هذا ما لا تعرفه الطفلة قط. كل ما تعرفه هو أنها كشخص كانت شديدة الضآلة، لا وزن لها، ولا حساب، كل ما تعرفه أن افتتانها بالمعلمة امتهن وابتذل، وأنها كانت بحق صغيرة وبلهاء. ويملؤها ذلك بالمرارة، مرارة لا جدال. مرارة وكبرياء. وإصرار على أن تكون شخصا لا ينخدع مرة أخرى.

ويحدث شيء. وها هي النهاية المفاجئة. ذات يوم تتبدل مشاعرها تجاه المعلمة وتجاه تلك الفترة كلها. لا تعرف كيف حدث هذا ولا متى، ولكنها تدرك أنها لم تعد تعتبرها فترة خداع. تفكر في الموسيقى التي تعبت في تعلمها (توقفت طبعا عن العزف قبل أن تصل حتى إلى سنوات المراهقة). تفكر في الآمال البسيطة، في تيارات السعادة، في أسماء زهور الغابة الغامضة المبهجة التي لم تذهب قط لمشاهدتها. في الحب. كانت سعيدة به. بدا لها أن ثمة خللا في العالم، خللا ظالما بطبيعة الحال، وعشوائيا، في إدارة مئونة البيت العالمي من العواطف، إذا كانت السعادة العظيمة لشخص ما -وإن تكن مؤقتة، وإن تكن تافهة- قد تعني التعاسة العظيمة لشخص آخر.

تفكر جويس، لم هذا؟ نعم، لم هذا؟

في عصر يوم الجمعة تذهب إلى متجر الكتب، ومعها النسخة لتوقيعها، ومعها أيضًا علبة صغيرة من "لو بون شوكولاتييه".

تقف في الطابور. تندهش قليلا من كثرة الحاضرين. نساء في مثل سنها، وأخريات أكبر وأصغر. وقليل من الرجال جميعهم أصغر، وبعضهم حاضرون مع صديقاتهم.

المرأة التي باعت الكتاب لجويس تتعرف عليها.

تقول "سعيدة بقدومك. هل قرأت مقالة الـ جلوب؟ تحفة".

ترتبك جويس، تنتابها في الواقع رعشة. يصعب عليها الكلام.

تمر المرأة بالطابور، موضحة أنه لا مجال لتوقيع أي نسخ غير التي اشتريت من هذا المتجر، ومبينة أنه غير مسموح بتوقيع الأنطولوجيا التي تظهر فيها إحدى قصص كريستي أوديل ، ومعتذرة للجميع.

المرأة التي تقف أمام جويس طويلة وعريضة، ولذلك لا تستطيع جويس أن ترى كريستي أوديل إلى أن تنحني هذه المرأة لتضع الكتاب على منضدة التوقيع. وحينذاك ترى جويس شابة مختلفة كل الاختلاف عن فتاة الملصق وفتاة الحفل. لا وجود للزي الأسود، وأيضا القبعة السوداء. كريستي أوديل ترتدي الآن سترة من حرير أحمر في وردي على طيتيها خرز ذهبي صغير، ومن تحتها قميص وردي أنيق، وفي شعرها لمسة ذهبي حديثة، وفي أذنيها قرط ذهبي، وحول عنقها سلسلة ذهبية

رقيقة كأنها شعرة. شفتاها تتلألآن كأنهما بتلتا وردة وجفناها مظللان بلون بين البني والأصفر.

وطبعا، فمن الذي يشتري كتابا لمتشردة؟

لم تكن جويس فكرت فيما ستقوله. ولكنها تتوقع أن يخطر لها في وقته.

الآن تتكلم البائعة من جديد.

"هل فتحت كتابك على الصفحة التي تريدين توقيعها؟"

لكي تفعل جويس هذا، عليها أن تضع من يدها العلبة. تستشعر رعشة في حلقها.

ترفع كريستي أوديل رأسها إليها، وهي تبتسم، ابتسامة مجاملة مهذبة، ابتسامة مسافة مهنية محسوبة.

"اسمك؟"

"جويس كفاية".

وقتها يمر بسرعة.

"ولدتِ في رافريفرز؟"

"لا" تقولها أوديل بقليل من الانزعاج، أو ربما هو غياب للبهجة وحسب. "عشت فيها فترة".

"تحبين أن أكتب التاريخ؟"

تستعيد جويس علبة الشوكولاتة. يبيعون في "لو بون شوكولاتييه" زهور الشوكولاتة، لكن ليس لديهم زنابق. ورد وتيوليب فقط. فاشتريت التيوليب الذي لم يكن في واقع الأمر مختلفا اختلافا كبيرا عن الزنابق. الاثنان بصيليان.

"أريد أن أشكرك على قصة كيندرتوتنليدر" تقولها بسرعة حتى توشك أن تبتلع الكلمة الطويلة. "إنها تعني لي الكثير. اشتريت لك هدية".

تقول البائعة "أليست قصة رائعة؟" وتتناول العلبة "أنا سآخذها عنك".

تقول جويس ضاحكة "ليس فيها قنبلة. فقط زنابق الشوكولاتة.

الحقيقة أنه تيوليب لا زنابق. لم يكن لديهم زنابق فأحضرت تيوليب، رأيت أنها ثاني أفضل شيء على الإطلاق".

تلاحظ أن البائعة الآن لا تبتسم، بل تنظر إليها نظرة صارمة. كريستي أوديل تقول "شكرا".

ليس في وجه الفتاة بصيص إشارة على أنها عرفتها. لا هي تعرفت على جويس التي عرفتها قبل سنين في رافريفرز، أو قبل أسبوعين في الحفلة. بل لا يمكن القول بثقة إنها انتبهت إلى عنوان قصتها نفسها. كأنما لا علاقة تربطها بالقصة أصلا. كأنها شيء استعملته ثم تركته على العشب.

كريستي أوديل جالسة هناك تكتب اسمها، وكأن تلك الكتابة هي أقصى ما يمكن أن تكون مسئولة عنه في العالم.

"سعدنا بالدردشة معك" تقول البائعة وهي لا تزال تنظر إلى العلبة التي ربطتها بائعة "لو بون شوكولاتييه" بشريط أصفر متلو.

رفعت كريستي أوديل عينيها محيية التالي في الطابور، وجويس، أخيرا، تنحت جانبا، قبل أن تصبح هي وعلبتها موضع مزاح عام، أو ربما، والله أعلم، موضع اهتمام الشرطة مثلا.

تمشي في طريق لونسديل، صاعدة التل، تشعر وكأنما سويت بالأرض، لكنها بالتدريج تستعيد قوامها. قد ينتهي كل هذا إلى قصة ظريفة تحكيها يوما ما. لن يدهشها هذا.

قطار

هو على أي حال قطار بطيء، وفي المنحنى يبطئ أكثر. وجاكسون هو الراكب الوحيد المتبقي، والمحطة التالية على بعد نحو عشرين ميلا. بعدها محطة ريبلي، ثم كينكاردين والبحيرة. حظه عال ولا ينبغي كسره. تناول بالفعل كعب تذكرته من حيث كان قد وضعها في شق أعلى رأسه.

يرمي حقيبته، يراها وهي تحط برقّة على الأرض، بين القضيبين. لا مجال الآن للاختيار، لن يبطئ القطار أكثر من هذا.

يفعلها. شاب صحيح البدن، خفيف الحركة. لكن الوثبة تحبطه، أو هو الهبوط بالأحرى. يتبين أنه أكثر تخشّبا مما تصور، وسكونه دفع به إلى الأمام فسقط براحتيه على الحصى بين العوارض الخشبية، وانخدش جلده. غضب.

يغيب القطار عن البصر، يسمع سرعته تزداد قليلا وقد ابتعد عن المنحنى. يبصق على يديه المجروحتين، مزيلا عنهما ما علق من حصى. ثم يتناول حقيبته وينطلق ماشيا عكس الاتجاه الذي مضى فيه القطار. لو اتبع القطار لوصل إلى المحطة بعد حلول الظلام بفترة. ويكون بوسعه حينئذ الشكوى من النوم الذي غلبه فلما استيقظ كان مشوشا، وحسب أن المحطة فاتته في نومه ولم تكن فاتته، فقفز من القطار وهو في حيرة من أمره.

وسوف ينطلي كلامه. شخص راجع من بعيد، من ألمانيا والحرب، يمكن جدا أن يتشوش رأسه. لم يفت الأوان، وسيكون حيثما كان ينبغي أن يكون قبل منتصف الليل. ولكنه طوال تفكيره في هذا، كان يسير في عكس الاتجاه. لم يكن يعرف كثيرا من أسماء الشجر. الزيزفون، ذلك يعرفه الجميع. الصنوبر. كان قد تصور أن المكان الذي وثب إليه جزء من غابة، لكنه لم يكن كذلك. فالشجر لا يتجاوز الخط الموازي لمسار القطار، كثيف بالقرب منه، لكن بوسعه أن يلمح الحقول من وراء الشجر، ما بين خضراء أو بنية أو صفراء. مراع ومحاصيل وقش. وهذا أقصى ما يعرفه. وهو أغسطس لا يزال.

وما تكاد ضوضاء القطار تغيب حتى يدرك أن ما حوله ليس ذلك السكون المطبق الذي كان يتوقعه. ثمة الكثير من الإزعاجات هنا وهناك، اهتزاز ورق الشجر اليابس في أغسطس بغير دفع من الريح، صيحة طائر

مجهول، طيور خفية تتعقبه.

قابل خلال السنوات القليلة الماضية ناسا يحسبون أنك ما لم تكن من المدينة فأنت من الريف، ولم يكن ذلك صحيحا. فجاكسن نفسه ابن سباك، لم يدخل طول عمره حظيرة، ولم يرع بقرًا أو يخزّن حبوبا. أو يجد نفسه -مثلما يجدها الآن- يسير مرتبكا بمحاذاة خط سكة حديدية، يبدو وكأنه ارتد عن غرضه الطبيعي وهو نقل الناس والبضائع وأصبح مستعمرة للبري من شجر التفاح وشجيرات التوت الشوكية وكرم العنب المنفرش والغربان الجاثمة على غصون لا تراها. وثعبان في هذه اللحظة يتلوّى بين القضبان، واثقا تمام الثقة أن البشري القريب هذا ليس لديه من السرعة ما يتيح له أن يطأه ويقتله. هو يعرف أنه ثعبان غير سام، ولكن ثقته هذه تكدره.

يمكن الاعتماد على أن البقرة الصغيرة المسماة "مارجريت روز" سوف تظهر في موعد الحلب لدى باب الحظيرة، مرتين كل يوم في الصباح وفي المساء. نادرا ما تضطر "بيلي" لمناداتها. ولكنها اليوم منتبهة أكثر مما ينبغي لشيء ما عند طرف المرعى، أو ربما بين الشجر الذي يداري السكة الحديدية فيما وراء السياج. سمعت صفير بيلي، ثم نداءها، فتحركت دونما رغبة في التحرك. ثم قررت في النهاية أن ترجع لتلقي نظرة أخرى.

وضعت بيلي الدلو والمقعد الصغير، ومضت تمشي بتثاقل وسط العشب المبلول بندى الصباح.

"مارجريتا، مارجريتا".

كان في ندائها تدليل، وتوبيخ أيضًا.

تحرّك شيء ما بين الشجر، وعلا صوت رجل يقول إن كل شيء تمام وإنه لا بأس.

وطبعا كل شيء تمام. هل كان يظن أنها خائفة أن يهاجم "مارجريت روز" التي لم تزل قرونها على رأسها؟

متسلقا السياج المحاذي للسكة الحديدية، راح يلوح بطريقة تصوّر أنها باعثة على الطمأنينة.

وذلك كان كثيرا على "مارجريت روز"، فكان عليها أن تبدأ استعراضها. فتقفز قفزة هنا، ثم أخرى، تحرك قرنيها الصغيرين الضعيفين، ولا شيء أكثر، لولا أن البقر الحلوب قادر دوما على مفاجأتك بما له من سرعة

وانحرافات مزاجية عنيفة. صاحت عليها بيلي، توبخها، وتطمئنه.

"فقط لا تتحرك وهي لن تؤذيك. إنها عصبية".

الآن لاحظت الحقيبة التي يحملها. تلك سبب المشكلة. كانت تظنه شخصا خرج يتمشى وحسب، ولكن تبين أنه يقصد مكانا ما.

"تلك سبب المشكلة. أغضبتها حقيبتك. لو أمكنك فقط أن تضعها أرضا للحظة. لا بد أن أعيدها إلى الحظيرة لأحلبها".

فعل ما طلبته منه، ثم وقف يشاهد غير راغب أن ينقل قدمه ولو بوصة.

عادت "مارجريت روز" إلى حيث وضعت الدلو والمقعد بجانب الحظيرة.

قالت "ارفعها الآن إن شئت. ما دمت لن تلوح بها في اتجاهها. أنت عسكري، صح؟ لو انتظرت إلى أن أحلبها يمكن أن أعد لك ما تفطر به. يا ربنا! أنا نفسي انقطع. خصوصا باسمها هذا عندما تحتاج الواحدة أن تنادي عليها، مارجريت روز".

كانت امرأة قصيرة، متينة، شعرها مسترسل، رمادي، مع لمسات هنا وهناك من ماضيه الأصفر الفاتح الطفولي.

قالت "أنا المسئولة عنها" ثم استقرت في قعدتها وأضافت "وأنا من دعاة الملكية. أو هكذا كنت. وعندي عصيدة، على النار. لن أقضي في حلبها وقتا طويلا. إذا لم يكن عندك مانع، اذهب إلى خلف الحظيرة وانتظر هناك حيث لا تراك. حاجة تكسف أني لا أستطيع أن أقدم لك بيضة. كان عندنا دجاج لكن الله يجازي الثعالب، ظلت وراءها حتى زهقنا".

نا. كان عندنا دجاج. معنى ذلك أن لديها رجلا في الجوار.

"العصيدة تكفي. وسيسرني أن أدفع لك".

"لا داعي. أنت فقط تعالى قليلا على جنب. أصلها مشغولة زيادة عن اللازم عن الحلب".

سحب نفسه إلى ما وراء الحظيرة التي كانت حالتها متدهورة، فتلصص من بين الألواح ليعرف أي سيارة لديها، ولكن كل ما أمكنه أن يراه، لم يزد على عربة قديمة، مما يجزها الحصان وبعض قطع الغيار

وحطام الآلات.

كان طلاء البيت الأبيض ما بين مقشور أو آخذ في الاسوداد. وعلى أحد الشبابيك ألواح مثبتة بالعرض بالمسامير، فلا بد أن ذلك لتعويض زجاجها المكسور، وحظيرة الدجاج الخربة التي ذكرت أن الثعالب كانت تصطاد منها الدجاج. وأكوام من الخشب.

لو أن في هذا المكان رجلا فهو رجل عاجز، أو كسول لحد الشلل.

وطريق قريب. وحقل صغير مسيّج في مواجهة البيت، وطريق ترابي. وفي الحقل المسيّج حصان أرقط يبدو وديع المظهر. بقرة ربما، قد يفهم أسباب الاحتفاظ بها، أما الحصان؟ حتى قبل الحرب كان الناس في المزارع يتخلصون من الخيول، وكانت الجرارات قد بدأت تهل. وشكلها ليست ممن يركبون حصانا ويتبخترون به حتى للمتعة. وفجأة فهم. تذكر عربة الحظيرة. هي ليست تذكارا بالتأكيد، بل هي كل ما لديها.

منذ فترة وهو منتبه إلى صوت. صوت من الطريق الصاعد التل، صوت دِرِجن دِرِجن، ومع الـ دِرِجن دِرِجن، رنين خافت، أو صفير.

ومن أعلى التل ظهرت عربة، يجرها حصانان صغيران بعض الشيء. أصغر من حصان الحقل لكنهما أرشق بكثير. وفي الصندوق يجلس نصف دزينة من الرجال الصغار، لابسين ثيابا سوداء، معتمرين قبعات سوداء تليق بها.

كان الصوت صادرا عنهم. كان صوت غناء. أصوات عالية النبرة واضحة، من أعذب ما يكون. لم ينظر أحدهم ولو نظرة إليه وهم يمرون به.

سرت فيه قشعريرة. لم تكن عربة الحظيرة أو حصان الحقل تقاس بهذا الذي رأى.

كان لا يزال واقفا ينظر هنا وهناك حتى سمع ندهة تقول "خلصنا خلاص". وكانت هي واقفة بجوار البيت.

"هذا هو المخصص للدخول والخروج" وأشارت إلى الباب، "أما الثاني فمحشور من الشتاء الماضي ومستعص على الفتح. لو رأيته لظننت أنه لا يزال وفيا للجليد".

مشيا على خشب يغطي أرضية ترابية غير ممهدة، في عتمة فرضها

الشباك المغلق بالعوارض الخشبية. كان الجو باردا هناك، مثلما كان في الحفرة التي نام فيها، فظل يصحو المرة تلو الأخرى، وكل مرة يحاول أن يلملم نفسه في وضع يبقيه دافئا. لم تكن المرأة ترتعش هنا، وكانت تفوح منها رائحة الصحة والشغل، وربما شيء من رائحة حظيرة البقرة.

صبت الحليب الطازج في دلو وغطته بقطعة من الشاش كانت بجواره، ثم أخذته إلى القسم الأساسي في البيت. الشبابيك هناك لم تكن لها ستائر فكان الضوء يملأ المكان. والفرن كان موقدا، وكان ثمة حوض وطلمبة، ومنضدة يغطيها مفرش منسول في بعض المواضع، وكنبة عليها لحاف قديم مرقع.

ووسادة أيضًا بعض ريشها ناتئ.

حتى الآن، لا بأس، رغم القدم والبلى. ثمة استخدام لكل شيء تقع عليه عيناك. لكن ارفع عينيك فقط وسترى رفوفًا عليها أكوام وأكوام حتى السقف من الجرائد والمجلات، أو ربما نوع ما من الورق.

كان عليه أن يسألها عما إذا لم تكن تخشى الحريق؟ فهناك فرن أيضًا.

"أوه، أنا موجودة طول الوقت. قصدي، أنا أنام هنا وكل شيء. لا يوجد مكان آخر لتخزين الأشياء فيه. لكنني حريصة. ليست لدي مدخنة. وأحيانا الفرن يسخن لدرجة أنني أضطر لرش بعض "البيكنج بودر" عليه. وعادي على فكرة، ليس خطأ.

قالت "وأمي أيضًا كان لا بدّ أن تبقى هنا. لم يكن هناك مكان آخر يمكن أن ترتاح فيه. كنت أضع فراشها هنا. وعيناي على كل شيء. فكّرت فعلا أن أنقل الجرائد كلها إلى الغرفة الأمامية لولا الرطوبة والبرد هناك، ستخرب بسرعة. ماتت في مايو. بمجرد أن أصبح الجو معتدلا. عاشت إلى أن سمعت عن انتهاء الحرب في الإذاعة. كانت فاهمة كل شيء. لم تكن تتكلم منذ وقت طويل لكن كانت تفهم. وأنا اعتدت على أنها لا تتكلم لدرجة أنني أحيانا أتصور أنها لا تزال موجودة لكنها لم تعد موجودة طبعا".

شعر جاكسن أن الوقت حان ليقول إنه آسف.

"أوه أبدا. كان قادما قادما. من حظنا أنه لم يأت في الشتاء".

قدمت له عصيدة الشوفان والشاي.

"ليس أثقل من اللازم؟ الشاي؟"

بفم ممتلئ، هز رأسه.

"الشاي بالذات لا أوفر فيه. لو وصلت إلى التوفير في الشاي أيضًا نشرب ماء ساخنا ونخلص. في عز الشتاء لم يبق لدينا شاي. والطلمبة تعطلت، والراديو تعطل، والبحر نفسه تعطل. وعندي حبل معلق على الباب الخلفي أمسك به عندما أخرج لأحلب. وكنت خارجة لأسحب مارجريت روز إلى المطبخ الخلفي لكن شعرت أنها متضايقة من العاصفة ولم أستطع الإمساك بها. لكن تحملت العاصفة وعاشت. عشنا كلنا".

سألها، لقا عثر على متسع في الحوار، عما إذا كان هناك أي أقزام في الجوار؟

"أنا عن نفسي لم أر".

"في عربة يجرها حصانان".

"أوه، كانوا قاعدين؟ لا بدّ أنهم كانوا صبية مينونيت الصغار. يذهبون إلى الكنيسة بعربتهم ويأخذون الطريق كله غناء. البنات يذهبن في العربة المغلقة حتما، لكنهم يسمحون للأولاد بركوب العربة".

"لم ينظروا لي قط".

"لا ينظرون. كنت أقول لأمي إننا نعيش في المكان السليم لأننا بالضبط مثل آل مينونيت. عندنا الحصان والعربة ونشرب حليبنا من غير بسترة، لكن الحاجة الوحيدة الناقصة أنه لا أنا ولا هي نغني".

"عندما ماتت أمي أحضروا لي أكلا كثيرا، ظللت آكل فيه أسبوعا. لا بدّ أنهم ظنوا أني سأقيم عزاء أو شيئا من هذا. كنت محظوظة بوجودهم هنا".

"لكن هم أيضًا محظوظون، لأنهم ينبغي أن يعملوا الخير وأنا على عتبتهم كما ترى ومناسبة عمل الخير حضرت".

عرض عليها أن يدفع بعدما انتهى لكنها ربتت على فلوسه وردتها.

قالت، ولكن هناك شيء واحد. إن كان بوسعه قبل أن يمشي أن يصلح حوض الحصان.

وكان أداء ذلك يعني في واقع الأمر صنع حوض جديد، ومن أجل ذلك كان عليه أن يفتش المنطقة بحثا عن أي خامات أو أدوات يمكنه العثور عليها. واستغرق النهار كله، وهي أعدت له فطائر محلاة وجهزت العشاء. قالت إنه لو كان أخر مجيئه أسبوعا واحدا لأمكنها أن تقدم له المربى طازجة. فقد قطفت التوت البري من شجيراته النامية بمحاذاة السكة الحديدية.

جلسا على مقعدي المطبخ أمام الباب الخلفي إلى ما بعد المغرب. كانت تحكي له قصة مجيئها إلى هنا وهو ينصت، وإن لم يكن منتبها إليها تمام الانتباه، فقد كان يتأمل المكان من حوله وكيف أنه في لحظاته الأخيرة لكن ليس ميؤوسا من أمره تماما، إن ود أحد أن يستقر فيه ويصلحه. كان لا بدّ من استثمار بعض المال، ولكن الاستثمار الأكبر المطلوب هو استثمار الوقت والطاقة. قد يكون الأمر تحديا. وقد يندم إن هو مضى قدما.

كان أبوها، وتقول عنه باباها، قد اشترى هذا المكان للصيف فقط، ثم قرر أنهم يمكن أن يعيشوا هنا طول السنة. فقد كان بوسعه أن يعمل في أي مكان، لأنه يعيش من عمود يكتبه لـ تورنتو تلجرام. (خجل جاكسن لما تصور العمود لوهلة عمودا حقيقيا يرفع سقفا في بناء). كان ساعي البريد يأخذ ما يكتبه ويتم إرساله بالقطار. كان يكتب عن أي شيء يحدث، مشيرا بين الحين والآخر إلى أم بيلي وإن كان يسميها الأميرة كاساماسيما تأثرا بكتاب ما [هو رواية "كاساماسيما" لهنري جيمس]. ربما أمها كانت السبب في بقائهم هنا طول السنة. فقد أصابتها إنفلونزا سنة ١٩١٨ الرهيبة التي مات بها كثيرون، ولما شفيت منها كانت قد أصيبت بالخرس. ليس خرسا بالضبط، لأنها كانت تصدر الأصوات جيدا، ولكن بدا أنها فقدت الكلمات، أو ربما الكلمات فقدتها. كان عليها أن تتعلم من جديد كيف تطعم نفسها وتدخل الحمام، وبقي شيء واحد لم تتعلمه، وهو أن تبقى مرتدية ثيابها حتى لو اشتد الحر. ولم يكن لأحد أن يرحب بها وهي تجعل من نفسها أضحوكة في شارع في مدينة. كانت بيلي تقضي الشتاء بعيدا في المدرسة. كان عليه أن يبذل بعض الجهد حتى يدرك أن ما تعنيه بالأسقف سترون لم يكن إلا مدرسة. مدرسة في تورنتو اندهشت أنه لم يسمع عنها. كانت مليئة ببنات الأثرياء، ولكن كان فيها أيضًا بنات من مستواها يتوفر لهن المال من أقارب أو من وصايا. قالت إن المدرسة علمتها الاعتزاز، ولم تعلمها أي شيء تكسب به لقمة عيشها.

ولكن كل ذلك انضبط بالمصادفة. فبينما كان أبوها يتمشى على السكة

الحديدية كما كان يفعل في كثير من مساءات الصيف، صدمه قطار. كانت أمها قد أوت إلى فراشها فعلا حينما وقع ذلك. وبينما تصورت بيلي أن حيوانا سائبا هو الذي صدمه القطار، كانت أمها تئن أنينا مريعا وكأنها علمت.

أحيانا كانت تكتب إليها زميلة من المدرسة تقول لها ما الذي يمكن أن تعمليه عندك بحق الجحيم، ولكن الفتاتين ما كانتا تعلمان الكثير. كان هناك الحلب والطبخ والاعتناء بالأم، فضلا عن الدجاج الذي كان في ذلك الوقت لا يزال موجودا. تعلمت كيف تقطع البطاطس بحيث تكون في كل قطعة عين، وتزرعها ثم تستخرجها من الأرض في الصيف التالي. ولم تكن تعلمت السواقة، فلما قامت الحرب باعت سيارة باباها. ومنحها آل مينونيت حصانا كان قد عجز ولم يعد صالحا للعمل في المزرعة، وعلمها أحدهم كيف تضع له اللجام وكيف تقوده.

أتت صديقة قديمة تزورها ورأت أن الحياة التي تعيشها لا تطاق، وأرادتها أن ترجع إلى تورنتو ولكن ماذا عن أمها؟ كانت أمها في ذلك الوقت قد أصبحت أهدأ بكثير وباتت تحتفظ بثيابها على جسمها، وتستمتع أيضًا بمتابعة الإذاعة، والأوبرا في مساءات الأحد. وبالطبع كان يمكن أن تفعل ذلك كله في تورنتو ولكن بيلي لم ترد أن تقتلعها من مكانها. أو لعلها كانت تتكلم عن نفسها في حقيقة الأمر، لعلها هي التي كانت تخاف الاقتلاع.

كان أول ما لزمه القيام به هو أن يجعل أماكن أخرى غير المطبخ صالحة للنوم قبل مجيء الشتاء البارد. كانت هناك بضعة فئران عليه أن يتخلص منها، بل وبعض الجرذان، التي جاءت طلبا للدفء وقد بدأ الجو يبرد. سألها لماذا لم تستثمر في قطة فسمع نتفة من منطقها. قالت إن القطة سوف تظل تطول الوقت تقتل هذا وذاك وتأتي إليها بما قتلته لتنظر إليه وهي لا تريد هذا. فظل يصيخ أذنا حادة لطرقعات الشراك لكي يتخلص مما يقع فيها قبل أن تعرف بما جرى. ثم إنه ألقى عليها محاضرة بخصوص الجرائد المكدسة في المطبخ، وصعوبة الفرار إن شب حريق، فوافقت على نقلها إن تخلصت الغرفة الأمامية من رطوبتها، فصارت تلك مهمته الأساسية. استثمر في سخّان وأصلح الجدران، وأقنعها أن تنفق الشطر الأكبر من شهر كامل في إنزال الصحف والنظر فيها وإعادة ترتيبها على الأرفف التي صنعها.

قالت له إن الورق يحتوي على كتاب أبيها، الذي كانت تسميه رواية في بعض الأحيان. لم يفكر أن يسألها عن أي شيء تدور الرواية لكنها حكت له من نفسها أنها عن اثنين اسمهما ماتيلدا وستيفن، وأنها رواية تاريخية.

"أتذكر التاريخ الذي درسته". كان قد قضى خمس سنوات في المدرسة الثانوية وحصل على درجات متميزة وتقدير جيد جدا في حساب المثلثات والجغرافيا، لكنه لم يكن يتذكر الكثير من التاريخ. فقد كان كل ما يفكر فيه في سنته الأخيرة على أي حال هو أنه ذاهب إلى الحرب.

قال "ليس كله".

قالت "كنت ستتذكره كله لو كنت درست في الأسقف ستراون. كانوا سيحشونك به حتى زورك. التاريخ الإنجليزي على أي حال".

قالت إن ستيفن كان بطلا. رجلا شريفا، صالحا في زمان فاسد. كان ذلك الشخص نادر المثال الذي لا يسعى إلى مصلحته ولا يرجع في كلمته وإن كان الرجوع فيها لا بأس به. وعليه، وفي نهاية المطاف، فشل.

وماتيلدا. كانت تنحدر مباشرة من نسل وليم الغازي، وفيها كل ما يمكن أن تتوقعه من قسوة وغطرسة. وإن كنت ستجد بهائم يدافعون عنها لمجرد أنها امرأة.

"لو كان أكملها لكانت رواية حلوة جدا".

جاكسن بالطبع لم يكن غبيا. كان يعرف أن الكتب موجودة لأن هناك من جلسوا وكتبوها. فهي لا تظهر من العدم. لكن السؤال هو لماذا. هناك كتب موجودة أصلا، وكتب كثيرة على فكرة. هو نفسه قرأ اثنين منها. "حكاية مدينتين" و"هاكلبيري فين"، والاثنان مكتوبان بلغة تسحلك سحلا، ولو أن كل لغة لها في سحلك طريقتها الخاصة. وهو ما كان مفهوما. فقد كتب الاثنان في الماضي. ما كان يحيره، وإن لم يعتزم الإفصاح عن ذلك، هو ما الذي يجعل أحدا يرغب في الجلوس لعمل كتاب آخر في الحاضر. الآن يعني.

تراجيديا، قالتها بيلي بسرعة، فلم يدر جاكسن إن كانت تتكلم عن أبيها أم عن الاثنين الاخرين في الكتاب الذي لم يكمله. عموما، بعدما أصبحت الحياة ممكنة في هذه الغرفة، صار عقله مشغولا بالسطح. فلا معنى لإصلاح غرفة مع ترك سطحها في حالة تهدد باستحالة الحياة فيها في

غضون عام أو اثنين. كان قد نجح في ترقيع السطح بحيث يحتمل شتاءين مثلا، لكنه لا يضمنه أكثر من ذلك. وكان لا يزال يخطط أن يواصل طريقه بحلول الكريسماس.

في بيت مينوتيت في المزرعة المجاورة، لم يكن للبنات الكبيرات والصبية الصغار الذين رآهم من القوة ما يمكّنهم من أداء المهام الجسام، فاستطاع جاكسن أن يؤجرهم نفسه في حصاد الخريف. وأثناء ذلك كانوا يدعونه لتناول الطعام معهم داخل البيت فاندهش لما رأى الفتيات يتصرفن باستهتار وهن يخدمنه، وأنهن لسن صامتات بأي حال مثلما كان يتوقع. لاحظ أيضًا أن الأمهات تراقبهن، وأن الآباء يراقبونه. وهكذا الكل في أمان.

وبالطبع لم يكن ثمة ما يستوجب الكلام عنه مع بيلي. كانت -كما تبين- أكبر منه بستة عشر عاما، ولكن الإشارة إلى هذا، ولو على سبيل المزاح، كفيلة بإفساد كل شيء. فقد كانت امرأة من نوع معين، وهو رجل من نوع معين.

البلدة التي كانا يتسوقان منها، كلما لزمهما ذلك، تدعى أوريولي، وتقع في مقابل البلدة التي نشأ فيها. كان يربط الحصان في سقيفة الكنيسة المتحدة، بعدما لم يبق بالطبع مرابط للخيول في الشارع الرئيسي. في البداية، كان يحذر من محلي الخردواتي والحلاق، لكنه سرعان ما عرف عن البلدات الصغيرة ما كان يجدر به أن يكون على دراية به وقد نشأ في إحداها: أن العلاقات بينها تقريبا منعدمة، اللهم إلا مباريات تقام في ملعب الهوكي أو سواه، حيث يتأجج حماس أقرب إلى العداوة. وحين كان الناس يحتاجون شيئا ولا يجدونه في متاجر بلدتهم، فإنهم يقصدون المدينة. ومثل ذلك حينما يريدون طبيبا غير المتاح لهم في بلدتهم. لم يصادف أحدا يعرفه، ولم يبد أحد فضولا تجاهه، رغم أنهم كانوا يلقون نظرتين على الحصان، حتى إذا حلت شهور الشتاء، امتنعوا حتى عن النظر إليه، فالطرق الخلفية في تلك الشهور تكون غير واضحة فيستعين الناس بالخيول في اصطحاب ألبانهم إلى معمل اللبن أو بيضهم إلى البقال.

كانت بيلي تقف دائما لترى الفيلم المعروض وإن لم تعتزم مرة أن تشاهد أيا منها. وكانت لديها معرفة هائلة بالأفلام ونجوم السينما، ولكنها معرفة ترجع إلى بضع سنوات مضت. فكان بوسعها مثلا أن تخبرك بمن كان كلارك جيبل متزوجا في الحياة الواقعية قبل أن يصبح ريت باتلر

[بحسب تسميته في "ذهب مع الريح"].

سرعان ما أصبح جاكسن يذهب ليحلق كلما طال شعره، أو لشراء التبغ إن نفد تبغه الذي بات يدخنه مثل مزارع عتيد يلف سجائره، ولم يحدث مرة أن أشعل سيجارة داخل البيت.

لفترة، لم تكن هناك سيارات مستعملة، فلما أتيحت، مع ظهور الطرز الحديثة بعد طول انتظار، وميل المزارعين الذي توفر لهم المال في هذه الأثناء إلى التخلص من سياراتهم القديمة، كان له حديث مع بيلي. فالحصان فريكلز ربنا وحده الذي يعلم كم يبلغ من العمر وهو يحرن كلما صادف تلا من أي نوع كان.

كان قد تبين أن تاجر السيارات عينه عليه، وإن لم يقم قط بزيارته.

قال تاجر السيارات "كنت أحسب أنك وأختك من آل مينونيت ولكن في زي مختلف".

لم يسترح جاكسن للكلام، ولكنه على الأقل، أفضل من زوج وزوجة. جعله ذلك يدرك كم كبر وتغير بمرور السنوات، وأن أحدا لن يتعرف في الرجل الذي صاره الآن، على الشخص الذي قفز من القطار، ذلك الجندي الهزيل المحطم. في حين بقيت بيلي -بحسب ما يرى- واقفة في نقطة من الحياة لا تتزحزح عنها، فهي طفلة كبيرة. وكلامها كان يؤكد انطباعه، فهي تتقافز بين الماضي وما هو أبعد منه، ولا يبدو أنها تفرق بين آخر رحلة قاما بها إلى البلدة وآخر فيلم شاهدته مع أمها وأبيها، أو المشهد الكوميدي الذي حدث حينما هددت مارجريت روز -الله يرحمها- جاكسن بقرنيها.

كانت ثاني سيارة لهما هي التي أقلتهما إلى تورنتو في صيف ١٩٦٢، في رحلة لم تكن في الحسبان، وجاءت في وقت غير مناسب لجاكسن. فقد كان من ناحية يبني حظيرة جديدة للخيول لآل مينونيت الذين كانوا مشغولين بالحصاد، ومن ناحية أخرى لأنه كان مشغولا بحصاد خضرواته التي زرعها بهدف بيعها في متجر بقالة بأوريولي. ولكن بيلي كان عندها ورم قررت أخيرا أن تهتم به، وكان عندها موعد لإجراء جراحة في تورنتو.

بقيت بيلي تقول، يا له من تغير. أنت واثق أننا لا نزال في كندا؟

كان ذلك قبل أن يمرا بـ كيتشنر. فما كادا يصلان إلى الطريق السريع الجديد حتى انتابها القلق بحق وقالت له إما أن تعثر على طريق جانبي

وإما أن تلف وترجع بنا. فوجد نفسه يحتد عليها، إذ كان المرور يزعجه هو الآخر. وبعدها لزمت الهدوء طول الطريق، ولم يكن بوسعه أن يعرف ما إذا كانت أغمضت، واستسلمت، أم أنها تصلي. فلم يعرف عنها قط أنها تصلي.

حتى هذا الصباح حاولت معه أن يغير رأيه بشأن الذهاب. قالت إن الورم يتضاءل، وليس العكس. قالت إنه بعد توفير التأمين الصحي للجميع، أصبح كل الناس يجرون جريا على الأطباء فيحيلون حيواتهم بأيديهم إلى مآسي من المستشفيات والعمليات الجراحية، فلا يزيدون على إطالة فترة ألمهم في نهاية الحياة.

هدأت وابتهجت بمجرد أن دخلوا تفريعتهم وأصبحوا فعلا في المدينة. وجدا نفسيهما على طريق أفنيو، ورغم التعجب مما طرأ على كل شيء من تغير، بقي بوسعها أن تتعرف في كل مبنى على شيء ما. فهناك البناية التي كانت تعيش فيها إحدى معلمات الأسقف ستراون (وينطق الاسم سترون ولكنه يكتب ستراتشن Strachan حسبما أخبرته قبل أسبوع) كان يوجد في الطابق تحت الأرضي محل تشتري منه اللبن والسجائر والجريدة. قالت، ألن يكون غريبا لو دخلت هناك فوجدت التلجرام لا تزال موجودة وليس فيها فقط اسم أبيها بل وصورته الباهتة التي التقطت له حين كان شعره يكسو رأسه كلها؟

ثم صيحة صغيرة، وفي شارع جانبي رأت نفس الكنيسة -وأقسمت أنها نفس الكنيسة- التي تزوج فيها أبواها، واصطحباها إليها ذات يوم لتتفرج عليها، رغم أنها لم تكن كنيستهم. فهم ما كانوا يذهبون إلى أي كنيسة، لا هذه ولا غيرها. قال أبوها إنهما تزوجا في القبو، لكن أمها قالت البهو.

أيامها كانت أمها لا تزال قادرة أن تتكلم، حدث ذلك أيام كان بوسعها أن تتكلم. ربما كان القانون أيامها يلزم الناس بالزواج في الكنيسة وإلا لا يكون زواجهم شرعيا.

في إلينئن رأت لافتة مترو الأنفاق.

"تخيل أني لم أستقل مترو الأنفاق في حياتي".

قالتها بمزيج من الألم والاعتزاز.

"تخيل أن تبقى جاهلا إلى هذا الحد".

في المستشفى كانوا جاهزين لها. وهي بقيت على حيويتها، تكلمهم عن

رعبها من المرور وعن الدنيا التي تغيرت، وسألتهم ما إذا كانوا لا يزالون يقيمون ذلك العرض في متجر إيثن في الكريسماس. وعما إذا كان أحد لا يزال يتذكر التلجرام؟

قالت ممرضة "لا بد أن تسوقي في الحي الصيني. هذه هي التجربة".

قالت "سأحرص على ذلك وأنا راجعة إلى البيت" وضحكت "إن رجعت إلى البيت".

"بطّلي هبل"

كانت ممرضة أخرى تتكلم مع جاكسن عن الموضع الذي ركن فيه وتخبره أين ينقلها بحيث لا يدفع ثمن تذكرة الانتظار. وتتأكد أيضًا أنه على علم بنُزل القادمين من خارج المدينة، فهو أرخص كثيرا من النزول في فندق.

قالوا إن بيلي ستوضع الآن في سريرها، وإن طبيبا سوف يأتي ليلقي نظرة عليها، ثم يمكن لجاكسن أن يأتي ليقول لها تصبحين على خير، ونبهوه إلى أنه قد يجدها نعسانة قليلا حينما يأتي.

سمعت كلامهم فقالت إنها أصلا نعسانة طول الوقت وإنه لذلك لن يندهش، وضحك الجميع.

أخذته الممرضة لتوقيع بعض الورق قبل أن يخرج. تردد حينما سألته عن درجة القرابة، ثم كتب "صديق".

عندما رجع في المساء لاحظ تغييرا، وإن لم يكن بوسعه أن يصف بيلي بالنعسانة. كانوا قد ألبسوها كيسا أخضر لم يغط عنقها أو أغلب ذراعيها. كان نادرا ما رآها بهذا العري ولا لاحظ الأوتار الممتدة بين ترقوتها وذقنها.

كانت غاضبة بسبب جفاف حلقها.

"لا يسمحون لي بتناول أي شيء إلا أحقر شربة ماء".

أرادته أن يذهب ويحضر لها كوكا، وذلك شراب لم يعرف أنها شربته أصلا طول حياتها.

"هناك آلة في آخر القاعة، لا بد أنها هناك. أرى الناس يمرون والكوكا في أيديهم فيصيبني هذا بالعطش".

قال إنه لا يخالف الأوامر.

لمعت في عينيها الدموع وأشاحت عنه بطفولية.

"أريد أن أرجع إلى البيت".

"قريبا ترجعين".

"ساعدني ألبس ثيابي".

"لا أقدر".

"لو لم تساعدني سألبس وحدي. وسأذهب بنفسي إلى محطة القطار".

"لم يعد أي قطار ركاب يمر في طريقنا"

فجأة، بدا أنها عدلت عن خطط الهروب.

في غضون لحظات قليلة أخذت تتذكر البيت والتحسينات التي أدخلاها -أو أدخلها هو في الأساس- عليه. الطلاء الأبيض اللامع عليه من الخارج، والمطبخ الخلفي الذي ابيضّ وكسيت أرضيته بالخشب. السطح الذي كسي بالخشب والشبابيك التي أصلحت وأعيدت سيرتها الأولى، وأهم المآثر، أنابيب السباكة التي صارت متعة في الشتاء.

"لو لم تظهر كنت عما قريب لأعيش البؤس المطلق".

لم يصارحها برأيه، بأنها كانت بالفعل تعيش ذلك البؤس.

قالت "حينما أخرج من هنا سأكتب وصية. كله لك. لن يضيع عليك تعبك".

كان بالطبع قد فكر في هذا، ويمكن أن تتوقعوا أن احتمال التملك كان يحقق له نوعا من الرضا الهادئ، رغم أنه عبّر عن رجائه الصادق ألا يقع أي شيء من هذا بسرعة. لكن لا. كان كل شيء يبدو بعيد الصلة به، بعيدا تماما.

عاودها الغضب.

"أوه، ليتني كنت هناك، لا هنا".

"ستشعرين أنك في حالة أحسن كثيرا عندما تفيقين من العملية".

رغم أنه بعد كل ما سمعه كان يعرف أن ما قاله ليس إلا كذبة كبيرة. وبغتة، حل عليه التعب.

كلامه كان أقرب للحقيقة مما كان يمكنه أن يتخيل. فبعد يومين من إزالة الورم كانت بيلي تجلس في غرفة أخرى تستقبله بحفاوة غير مشغولة بأنات امرأة أخرى تحجبها ستارة حول السرير المجاور. هكذا كانت هي -أي بيلي نفسها- بالأمس، حينما كان يحاول أن يجعلها تفتح عينيها، أو تشعر بوجوده.

قالت بيلي "دعك منها. هذه ضائعة تماما. لعلها لا تشعر بأي شيء. وغدا ستصبح مشرقة مثل الجنيه الذهب. وربما لا".

ثمة شيء من الرضا، وسلطة بادية، وبأس محاربة قديمة. كانت تجلس في فراشها تتجرع شرابا برتقاليا ساطعا عبر ماصة منثنية لينة. بدت أصغر بكثير من المرأة التي أتي بها إلى المستشفى قبل فترة قصيرة.

سألته إن كان ينام كفايته، وإن كان وجد مكانا مناسبا يأكل فيه ما يشاء، وعما إذا لم يكن الجو أدفأ مما ينبغي للمشي، وعما لو كان وجد الوقت لزيارة متحف أونتاريو الملكي بحسب ما تتذكر أنها نصحته.

ولكنها لم تستطع التركيز في إجاباته. كانت تبدو وكأنها في حالة ذهول داخلي. ذهول محكوم.

قالت في منتصف شرحه سر عدم ذهابه إلى المتحف "أوه، لا بدّ أن أحكي لك. أوه لا تخف هكذا. ستجعلني أضحك بمنظرك هذا، وتنفك غرزي. وما الذي يجعلني أفكر في الضحك أصلا وهو شيء حزين محزن بدرجة رهيب، مأساة. أنت عارف حكاية أبي، ما حكيته لك عن أن أبي ..."

الشيء الذي لاحظه هو أنها قالت أبي بدلا من بابا.

"أبي وأمي ...".

بدا أنها بحاجة إلى البحث عن نقطة تبدأ منها بداية جديدة.

"البيت كانت حالته في تلك الأيام أفضل من الحالة التي رأيته أنت عليها. فعلا يعني. كنا نستخدم الغرفة العلوية حماما. وكنا بالطبع نضطر إلى حمل الماء طلوعا ونزولا. فيما بعد، عندما جئت أنت، كنت أستعمل السفلية. ذات الأرفف، عارفها، التي كانت خزانة؟"

كيف لا تتذكر أنه الذي أزال الأرفف وأقام الحمام؟ هو الشخص الذي فعل ذلك.

قالت وكأنها قرأت أفكاره "أوه، عموما، كل هذا ليس مهما. كنت أسخن الماء وأصعد به لأستحم هناك بالإسفنجة. وأخلع ثيابي. فعلا يعني. كانت هناك مرآة ضخمة فوق الحوض، وكان فيه حوض مثل أي حمام حقيقي ولكن كان عليك أن تنزع السدادة لترجع مياه الحوض إلى الدلو بعد أن تنتهي. المرحاض نفسه كان في مكان آخر. وصلتك الصورة. فكنت أتقدم لأستحم وأنا عارية تماما، كما ولدتني أمي. لا بد أن ذلك كان في قرابة التاسعة صباحا لأن النور كان قويا. وكنا في الصيف، قلت لك هذا؟ أن الغرفة الصغيرة تلك كانت تواجه الغرب؟".

"ثم سمعت خطوات وطبعا كان بابا. أبي. لا بد أنه كان انتهى من وضع أمي في السرير. سمعت الخطوات تصعد السلم ولاحظت أنها ثقيلة. ليست المعتادة. متأنية تماما. أو ربما ذلك كان انطباعي بعد مرور الوقت. الواحد عادة يعمل من الحبة قبة بعدما يمر الوقت. توقفت الخطوات على باب الحمام بالضبط، ولو كنت فكرت في شيء فلا بد أنني قلت لنفسي أوه كم هو متعب. لم أكن أغلق أي مزلاج لأن الباب لم يكن به أي مزلاج. كنت تعرف أن أحدا في الحمام عندما ترى أن باب الحمام مردود"

"وقف إذن عند الباب ولم أفكر في أي شيء ثم فتح الباب ووقف ينظر إلي. ولا بد أن أقول ما أعنيه. ينظر إلي كلي، لا إلى وجهي. وجهي ناظر إلى المرآة وهو ناظر إلي في المرآة، وإلى ما ورائي أيضا، ولا أراه. لم تكن نظرة طبيعية بأي معنى".

"سأقول لك ما فكرت فيه. فكرت أنه يمشي وهو نائم. لم أدر ماذا أفعل لأنه لا ينبغي لك أن ترقع شخصا يمشي وهو نائم".

"لكنه ساعتها قال "عفوا" وعرفت أنه لم يكن نائما. قالها بصوت مرح، قصدي أنه كان صوتا قويا. وكأنه كان مشمئزا مني، أو غاضبا مني، لا أعرف. ثم ترك الباب مفتوحا ونزل إلى الصالة. جففت جسمي ولبست ثوب النوم ودخلت سريري على الفور. وعندما استيقظت في الصباح وجدت الماء الذي كنت أفرغته ولم أكن أريد الاقتراب منه لكني اقتربت".

"لكن كل شيء بدا طبيعيا وهو كان مستيقظا وجالسا إلى الآلة الكاتبة. صاح قائلا صباح الخير ثم سألني عن هجاء كلمة متلما كان يفعل في

أحيان كثيرة، فقد كنت أشطر منه في الهجاء، فتهجيتها ثم قلت له إن عليه أن يتعلم التهجئة إن كان يحسب أنه كاتب، كان مبؤوسًا من أمره. ثم حدث بعدها في ذلك اليوم وأنا أغسل بعض الأطباق أن جاء ووقف ورائي مباشرة فتجمّدت. قال "أنا آسف يا بيلي" وقلت في نفسي أوه، ليته ما قالها. أرعبتني. عرفت أنه آسف فعلا ولكنه قالها علنا هكذا بطريقة لا يمكن تجاهلها. قلت له "لا بأس" ولكن دون أن أستطيع أن أحمل نفسي على قولها بطريقة عادية وكأنه لا بأس فعلا".

"لم أقدر. كان لا بد أن أعزفه أنه غيرنا. ذهبت أرمي ماء الغسيل ثم رجعت لأعمل أي شيء دون كلمة واحدة. بعدها أيقظت أمي من قيلولتها ووضعت لها الغداء وناديته فلم يرد. قلت لأمي إنه لا بد قد خرج يتمشى. وكذلك كان يفعل كلما عجز عن التقدم في الكتابة. ساعدت أمي في تقطيع طعامها".

"لم أكن أعرف أين يمكن أن يكون قد ذهب. هيأت أمي للنوم رغم أن تلك كانت مهمته هو. ثم سمعت القطار قادما والقعقعة والصرير الزاعق الناجم عن مكابحه ولا بد أن أكون عرفت ما جرى وإن لم أعرف بالضبط متى عرفت".

"حكيت لك من قبل. حكيت لك أن قطارا دهسه".

"لكنني لا أحكي لك هذا، لا أحكيه لمجرد أن أحزنك. أنا في البداية لم أكن أستطع الاحتمال وطوال حياتي ظللت أقنع نفسي أنه كان يمشي على السكة الحديدية وعقله مشغول في عمله فلم ينتبه للقطار. تلك كانت القصة. لم أكن لأظن أنها تتعلق بي أنا أو أنها بالدرجة الأساسية تتعلق بشيء اسمه الجنس".

"يبدو لي أنني الآن فقط أمتلك فهما حقيقيا لما جرى وأعرف أنه لم يكن خطأ أحد. كان خطأ الجنس البشري في موقف مأساوي. أن أكبر أنا هناك وأن تكون أمي على حالتها وبابا، بصورة طبيعية، على الحالة التي ينبغي أن يكون فيها. لا أنا أخطأت ولا هو أخطأ".

"لا بد من اعتراف، هذا كل ما أعنيه، لا بد من أماكن يذهب إليها الناس إذا كانوا في وضع معين. دون خجل أو إحساس بالذنب. إذا كنت تتصور أنني أتكلم عن مواخير فهذا صحيح. إذا فهمت من كلامي أنني أتكلم عن عاهرات، فهذا مرة أخرى صحيح. فاهم؟"

قال جاكسن، وهو ناظر إلى ما فوق رأسها، نعم.

"أشعر أنني تخفّفت. لا أقول إنني لم أعد أشعر بالمأساة، ولكني بطريقة ما أصبحت خارج المأساة، هذا ما أعنيه. أخطاء البشر فقط هي المأساوية، لو أنك تفهم ما أعني. لا ينبغي أن تتصور أنني ما دمت أبتسم فأنا بلا إحساس، فهذا هو العكس بالضبط. ولكن عليّ أن أقول إنني ارتحت. في الوقت نفسه، عليّ أن أقول إنني سعيدة بعض الشيء. أنت لا تجد حرجا من استماعك للقصة؟"

"لا".

"وتدرك أنني في حالة غير طبيعية بعض الشيء. أعرف أنني كذلك. هناك هذه الحالة غير الطبيعية من الصفاء. في كل شيء على فكرة. كل شيء واضح. وأنا ممتنة لكل شيء".

لم تكن امرأة السرير المجاور قد خفّفت أناتها الموقّعة طوال ذلك كله، حتى شعر جاكسن وكأن تلك اللازمة الموسيقية انغرست في رأسه.

سمع حذاء ممرضة لينا في الممر وتمنّى لو أنها تدخل الغرفة. ودخلت.

قالت الممرضة إن عليها أن تعطي بيلي حبة ما قبل النوم. خشي أن تطلب منه أن يقبلها قبلة الأحلام السعيدة وقد لاحظ أن في تلك المستشفى الكثير من أنواع القبلات. وفرح لما نهض دون أن يأتي ذكر لتلك القبلة.

"أراك غدا".

استيقظ مبكرا، وقرر أن يمشي قليلا قبل الإفطار. كان قد نام جيدا لكنه قال لنفسه إنه لا بدّ أن يستريح قليلا من جو المستشفى. لم يكن الأمر أنه قلق بشأن التغير الذي طرأ على بيلي. فقد فكر أنه يمكن أو يُحتمل أن ترجع إلى طبيعتها إما اليوم وإما خلال يومين ثلاثة. حتى إنها قد لا تتذكر القصة التي حكتها له. ويكون خيرا وبركة.

كانت الشمس مشرقة واضحة كعادتها في ذلك الوقت من العام، والحافلات والقطارات ممتلئة تماما. سار قليلا باتجاه الجنوب، ثم استدار غربا إلى شارع دونداس، وبعد وهلة وجد نفسه في الحي الصيني الذي كان قد سمع عنه. أكوام من خضراوات يعرفها، وأخرى لا يعرفها تنتقل إلى المحلات، وحيوانات صغيرة مسلوخة، وصالحة فيما يبدو للأكل، معلقة

للبيع. كانت الشوارع مزدحمة بشاحنات مركونة في أماكن غير مسموح فيها بالركن، والضجيج في أغلبه صيني غير مفهوم. كانت الضجة تبدو وكأنها حرب قائمة، لكنها قد تكون بالنسبة لهم مسألة يومية. رغم ذلك شعر أنه خرج عن طريقه، فدخل مطعما يديره صيني لكنه يعلن عن إفطار عادي من البيض ولحم الخنزير. ولما خرج منه كان يعتزم أن يعود أدراجه.

لكنه بدلا من ذلك وجد نفسه يتجه جنوبا مرة أخرى. دخل شارعا سكنيا تصطف على جانبية بيوت عالية أميل إلى الضيق، لا بد أن تكون بنيت قبل أن يستشعر أهل المنطقة بالاحتياج إلى أن تكون لهم جراجات خاصة أو ربما قبل أن يمتلكوا سيارات. قبل أن توجد السيارات أصلا. ظل يسير حتى صادف لافتة "شارع كوين" الذي كان قد سمع به. انعطف غربا وما كاد يتجاوز بضع مجمعات سكنية حتى واجهته عقبة. ففي مقابل محل فطائر كان جمع صغير من الناس الواقفين أمام سيارة إسعاف راكنة بعرض الرصيف بحيث لا تسمح لأحد بالمرور. كان بعضهم يتذمر بسبب هذا التأخير ويتساءل إن كان ركن سيارة إسعاف على الرصيف أمرا قانونيا، بينما بدا البعض مسالمين يدردشون حول السبب الذي دعا السيارة إلى مثل هذه الوقفة. ذكر أحدهم الموت، وتكلم بعض المشاهدين عن مرشحين محتملين للموت، بينما قال آخرون إن الموت هو السبب الوحيد المشروع لوقوف سيارة بهذه الطريقة.

الرجل الذي خرج في نهاية المطاف محمولا، ومربوطا في النقالة لم يكن ميتا بكل تأكيد وإلا لقاموا بتغطية وجهه. ولم يخرج محمولا من محل الفطائر حسبما تنبأ بعض المازحين -في سخرية من جودة فطائر المحل- وإنما خرج من باب العمارة الرئيسي، وكانت عبارة عن مبنى شكله معقول يتكون من خمسة طوابق تحتل الأرضي منها مغسلة بالإضافة إلى محل الفطائر. وفي الاسم المنحوت على واجهتها ما يشي بعز وبحماقة أيضًا في غابر أيامها.

بوني داندي.

وخرج أخيرا رجل لا يرتدي زي الإسعاف. وقف يلقي نظرة غاضبة على الجمع الذي كان يفكر الآن في الانصراف، ولم يعد ثمة ما يمكن انتظاره الآن إلا نحيب سيارة الإسعاف وهي تشق طريقها إلى الشارع مختفية فيه.

كان جاكسن أحد من لم يبالوا بالانصراف. ولا يمكنه القول إن ذلك لفضول يستشعره تجاه أي شيء، بل لأنه كان يتوقع الانعطافة الحتمية

التي كان ينتظرها أن ترجع به من حيث أتى. مضى الرجل الذي خرج من العمارة حتى سأله إن كان في عجلة من أمره.

لا. ما من عجلة.

كان ذلك الرجل هو مالك العمارة. أما الرجل الذي حملته الإسعاف فكان البواب المشرف عليها.

"عليّ أن أذهب إلى المستشفى لأرى ما مشكلته. كان طبيعيا تماما بالأمس. لم يشك يوما من شيء. وليس له أحد أتصل به، في حدود ما أعرف. والأسوأ أنني لا أجد المفاتيح. فلا هي معه ولا هي حيث يضعها في العادة. والآن لا بدّ من الذهاب إلى البيت لإحضار نسختي الاحتياطية، وأقول لو يمكنك أن تراقب العمارة أنت في هذه الأثناء؟ لا بدّ أن أذهب إلى البيت ولا بدّ أن أذهب إلى المستشفى. يمكن أن أطلب هذا من بعض السكان لكنني لا أفضل هذا، إذا كنت تفهم قصدي. الفضول الطبيعي أو ما شابه".

كرر سؤاله عما لو كان جاكسن متأكدا أنه لا يمانع، فأكد له جاكسن أنه ما من مشكلة.

"فقط ضع عينيك على الداخل والخارج، واسأل كل واحد عن مفاتيحه، وقل إنها مسألة طارئة، وأنا لن أتأخر".

وكان ماضيا لكنه التفت.

"ويمكن أن تجلس"

كان هناك كرسي، لكن جاكسن لم يره. كان مطويا ومبعدا عن الطريق لكي تركن سيارة الإسعاف. كان أحد تلك الكراسي القماشية لكنه مريح بقدر كاف ومتين. جلس جاكسن في نقطة لا يعوق فيها حركة المارة على الرصيف أو سكان العمارة. لم يلاحظه أحد. كان قد أوشك أن يأتي على ذكر المستشفى وحقيقة أنه هو نفسه لا بدّ أن يرجع قبل أن تمر فترة طويلة. لكن الرجل كان في عجلة من أمره، وكان في عقله ما يكفيه، فضلا عن أنه قال أصلا إنه سيرجع بأسرع ما يستطيع.

أدرك جاكسن، بمجرد أن جلس، كم طال عليه المشي هنا وهناك.

كان الرجل قد أخبره أن بوسعه الحصول على قهوة أو شيء من محل الفطائر إن احتاج إلى ذلك.

"فقط أخبرهم باسمي".

ولكن جاكسن لم يكن يعرف الاسم.

عندما رجع المالك اعتذر عن تأخره. كان الرجل الذي اصطحبته الإسعاف قد مات. وكان لا بد من اتخاذ بعض الترتيبات. صار هناك ما يستدعي نسخة جديدة من المفاتيح. وها هي. وسوف تلزم كذلك إقامة عزاء ما لمن يقيمون في العمارة منذ فترة. وإعلان في الجريدة قد يأتي بقليل غيرهم. بعض الإزعاجات إلى أن ينتهي الأمر.

لكن المشكلة سوف تحل. لو كان جاكسن يستطيع. مؤقتا. لو أنه فقد يستطيع بشكل مؤقت.

نعم، ما من مشكلة، قال جاكسن.

لو أراد لقليل من الوقت، أولا يمكن تدبير ذلك. وبعد انتهاء العزاء ونقل بعض الأغراض، يمكن أن يذهب لبضعة أيام يدبر فيها أموره ويستعد للانتقال.

قال جاكسن إنه لا لزوم لذلك. فأموره مدبرة وأغراضه في جيبه.

طبيعي أن يثير هذا بعض الشكوك. فلم يندهش جاكسن بعد يومين عندما علم أن مستخدمه قام بزيارة قسم الشرطة. لكن الظاهر أن كل شيء كان على ما يرام. إذ تبين أنه شخص وحيد من أولئك الذين قد يتركون أنفسهم ينغمسون بطريقة أو بأخرى، ولكن دون أن يكونوا مدانين بشيء قانونا.

لم يبد أن هناك حفلة تفتيش تجري أو أي شيء.

كقاعدة، أحب جاكسن وجود مسنين في العمارة. وكقاعدة، من يعيشون وحدهم. ليسوا زومبي. بل هم أشخاص لهم اهتماماتهم. لهم موهبة. نوعية الموهبة التي تلفت الأنظار لوهلة وتتحول إلى سبب للعيش، وإن لم يكن سببا كافيا بطول عمر كامل. مذيع كان صوته مألوفا عبر الإذاعة في زمن الحرب ولكن أحباله الصوتية تقطعت الآن إربا. وأغلب الناس يتصورون أن يكون مات. ولكن ها هو ذا في شقة عزوبية، متابع الأخبار، مشترك في جريدة "جلوب آند ميل" التي يمررها إلى جاكسن لو كان فيها ما يثير اهتمامه.

ومرة كان فيها.

مارجوري إيزابيلا تريسي، ابنة ويلارد تيرسي، كاتب المقال الراحل في تورنتو تلجرام، وزوجته هيلينا (ني أبوت) تريسي، توفيت بعد صراع شجاع مع السرطان. نقلا عن جريدة أوريولي. ١٨ يوليو ١٩٦٥.

لا إشارة إلى المكان الذي كانت تعيش فيه. ربما في تورنتو. لقد بقيت لفترة أطول مما كان يتوقع. لم يضيع لحظة يستعرض فيها الأعمال التي نفّذها لها. لم تكن ثمة حاجة إلى ذلك، فهي أشياء غالبا ما تستعاد في الأحلام، وإحساسه في ذلك الوقت كان إحساس غضب أكثر منه إحساسا بالشوق، كأنما كان عليه أن يعود إلى عمل شيء لم يكن أكمله.

في عمارة بوني داندي، كان لا بدّ لجاكسن أن يراعي البشر في أثناء قيامه بأعمال الصيانة لما يحيط بهم، أو عند اقترابه مما تسميه النساء أعشاشهن. (كان الرجال في العادة لا يرتاحون لأي تحسينات تستوجب زيادة الإيجار). لكنه كان يقنعهم، بطريقة فيها احترام وبحس مالي جيد، وأصبحت للعمارة قائمة انتظار. وقال صاحب العمارة "نستطيع الآن أن نملأها كلها دون تأجير أي شقة لأي من غرباء الأطوار" لكن جاكسن قال إن غرباء الأطوار يكونون في العموم أكثر نظامًا من المعتاد، فضلا عن أنهم قلة. كانت هناك امرأة عزفت ذات يوم في أوركسترا تورنتو السيمفوني، ومخترع ضاع عليه بالفعل أن يجني ثروة من أحد اختراعاته ولكنه لم ييأس بعد، رغم أنه جاوز الثمانين. وممثل هنجاري لاجئ لهجته غير مطلوبة، لكن لا يزال أحد إعلاناته يعرض في مكان ما من العالم. وكلهم كانوا مؤدبين، حتى الذين يذهبون منهم كل يوم إلى حانة إبيقور ويبقون فيها حتى تغلق. وأيضا كان لهم أصدقاء من المشاهير الحقيقيين الذين يظهرون في العزيز النادر في زيارة للعمارة. ولا ينبغي أن يستهان بحقيقة أن في بوني داندي واعظها المقيم الذي مهما تكن طبيعة كنيسته يبقى قادرا على التلبية كلما دعا الداعي.

كان الناس غالبا ما ينتظرون إلى أن يصبح المرور على مكتب جاكسن لازما لا غنى عنه.

باستثناء واحد هو الزوجان الشابان كانداس وكوينسي، اللذان لم يمرّا على المكتب لدفع الإيجار، بل هربا في منتصف الليل. تصادف أن المالك كان هو المسئول حينما جاءا يبحثان عن غرفة، وبرر لنفسه الاختيار السيء بقوله إن العمارة كانت بحاجة إلى وجوه جديدة. وجه كانداس بالذات. لا وجه صديقها. فالصديق كان مجرد بغل غبي قصير.

ذات يوم صيفي حار ترك جاكسن الباب الخلفي المزدوج وبابي التسليم مفتوحة، ليتحرك الهواء في أثناء عمله في طلاء منضدة. كانت منضدة جيدة حصل عليها بلا مقابل بسبب تقشر طلائها، ورأى أن شكلها سيكون لائقا بأن يوضع عليها البريد في مدخل العمارة.

كان بوسعه أن يبقى خارج المكتب لأن المالك كان بالداخل يفحص بعض الإيجارات.

لمس أحدهم الجرس الأمامي لمسة خفيفة. وتأهب جاكسن كي يحرك نفسه للتلبية، فنظف الفرشاة، وقد ظن أن المالك في غمار الأرقام لن يبالي بهذا الإزعاج. لكن الأمر مرّ على ما يرام، فقد سمع الباب يفتح، ثم صوت امرأة. صوت على شفا الإنهاك، لكنه قادر أن يحتفظ ببعض فتنته، بثقته المطلقة بأنه مهما يكن ما يقوله فإنه سوف يغلب أي أحد يكون في نطاق الاستماع إليه.

لعلها ورثت ذلك عن أبيها القسيس. تذكر أنه فكر في هذا من قبل.

قالت المرأة إن ذلك كان آخر عنوان لديها لابنتها. كانت تبحث عن ابنتها. ابنتها كانداس. جاءت إلى هنا من كولمبيا البريطانية. من كيلوانا التي تعيش فيها هي ووالد البنت.

إليين. اسم المرأة هو إليين.

سمعها تسأل عما إذا كان يمكنها أن تجلس. ثم سمع المالك يسحب لها مقعده، مقعد جاكسن.

تورنتو أشد حرارة بكثير مما كانت تتوقع، مع أنها لم تكن غريبة على أونتاريو، فقد نشأت فيها.

تساءلت إن كان بوسعها أن تستأذن في كوب ماء.

لا بد أنها كانت تضع رأسها بين يديها، فقد خرج صوتها مكتوما. خرج المالك إلى البهو ووضع عملة في الآلة ليأخذ زجاجة سفن أب، فلعله ظن أنها أنسب للنساء من الكوكا.

رأى جاكسن في الركن ينصت، وأشار إشارة إلى أنه، أي جاكسن، هو الذي ينبغي أن يتولى الأمر، بما أنه الأكثر اعتيادا على السكان الحزانى. ولكن جاكسن هز رأسه بعنف: لا.

غير أنها لم يطل بها الحزن.

اعتذرت للمالك، فقال إن الحرارة تلعب بهم هذه الأيام.

أما بالنسبة لكانداس. فقد غادرا منذ شهر تقريبا، ربما منذ ثلاثة أسابيع، ولم يتركوا عنوانا لتحويل البريد.

"في مثل هذه الحالات عادة لا يكون هناك عنوان ..."

فهمت الإشارة.

"أوه، بالطبع يمكنني أنا أن أسوي ..."

وكان ثمة شيء من الغمغمة والخشخشة في أثناء القيام بذلك. ثم "لا أتصور أنك يمكن أن تسمح لي برؤية المكان الذي كانا يعيشان فيه".

"فيه ساكن الآن. لكن حتى إذا لم يكن موجودا لا أعتقد أنه كان ليوافق".

"طبعا، هذا سخف".

"هل هناك أي شيء آخر يهمك بصفة خاصة؟"

"أوه، لا، لا. أنت في غاية الطيبة. أنا ضيعت وقتك".

نهضت الآن، وهما يتحركان. خرجا من المكتب، ينزلان الدرجتين إلى الباب الأمامي. انفتح الباب وابتلعت ضوضاء الشارع التحيات إن كانت تبودلت أصلا.

رغم أنها منيت بالهزيمة، خرجت من المعركة بجلال.

خرج جاكسن من مخبئه لحظة رجوع المالك إلى المكتب.

"مفاجأة" قال المالك "أخذنا فلوسنا".

كان رجلا بالدرجة الأساسية لا يبالي بالمسائل الشخصية. وهو شيء كان جاكسن يقذره فيه.

طبعا كان يود لو أنه رآها. لم تكن الابنة قد تركت فيه انطباعا كبيرا. صحيح كان شعرها أشقر لكنه في الغالب كان مصبوغا. صحيح لا تتجاوز العشرين لكن من يدري في هذه الأيام. وخاضعة خضوعا أكيدا لصاحبها. تهرب من البيت، ومن دفع الإيجار، وتكسر قلب أبويها، من أجل صاحب لا

تخلعه من قدمك.

أين كيلوانا؟ في مكان ما من الغرب. كولمبيا البريطانية. مسافة طويلة تقطعها لتستفسر. قطعا كانت امرأة ذات دأب. متفائلة. ولعل ذلك لا يزال يصدق عليها. تزوجت. إلا لو كانت البنت نتيجة علاقة غير زوجية وذلك يبدو له مستبعدا تماما. في المرة التالية ستكون أكثر ثقة، ستكون أكثر ثقة في نفسها، لن يبدو أنها في مأساة. ولا البنت ستكون كذلك هي الأخرى. سوف ترجع إلى البيت حينما تنال كفايتها. قد ترجع وعلى ذراعها طفل ولكن هذا هو النموذج السائد هذه الأيام.

قبيل الكريسماس في عام ١٩٤٠ حدث لغط في المدرسة الثانوية. ووصل إلى الطابق الثالث الذي كان ضجيج الآلات الكاتبة والآلات الحاسبة فيه يعزل أي ضجة أخرى تحدث بالأسفل. كان ذلك الطابق يضم أكبر بنات المدرسة اللاتي انتهين من دراسة اللاتينية والبيولوجي وتاريخ أوربا ووصلن إلى مرحلة دراسة الآلة الكاتبة.

إحدى أولئك كانت إليين بيشب، وهي ابنة كاهن، برغم أنه يخدم في الكنيسة المتحدة التي ليس فيها أساقفة. وصلت إليين مع عائلتها وهي في الصف التاسع وبقيت خمس سنوات، وبسبب الترتيب الألفبائي المتبع في المدرسة كانت تجلس وراء جاكسن آدمز. وفي الوقت الذي أصبح فيه حياء جاكسن وصمته الفريدان مقبولين من جميع طلبة الفصل، كانا شيئا جديدا عليها، وعلى مدار السنوات الخمس التالية، لم تعترف بهذه الحالة، فكان عدم اعترافها يفضي إلى كسر للجليد. كانت تستعير منه ممحاة وأقلاما وأدوات هندسية لا بهدف تذويب الجمود، بل لأنها كانت فعلا كثيرة النسيان. تبادلا حل المسائل، وراجعا الامتحانات سويا. وحينما كانا يلتقيان في الشارع كانا يتبادلان التحية، ولم تكن تحيته لها غمغمة غامضة، بل كلمة واضحة النبر مؤكدة. ولم يحدث ما هو أكثر من هذا إلا تبادل بعض النكات. لم تكن إليين بنتا خجولا لكنها كانت شاطرة وانعزالية وليست لها شعبية واضحة، وبدا أن هذا يناسبه.

من مكانها على السلم، عندما خرجت البنات الكبيرات جميعا لرؤية تلك الجلبة، اندهشت إليين وبقية البنات لما رأين أن أحد الولدين المتسببين في الجلبة هو جاكسن. والآخر كان بيل واطس. ولدان كانا حتى عام مضى منكفئين على الكتب يتنقلان ملتزمين بين الفصول. وهما الآن في الزي العسكري يبدوان وقد تضاعف حجمهما، والحذاءان العسكريان في

أقدامهما يتسببان في ضوضاء ضارية. كانا يصيحان بأن الدراسة ألغيت في ذلك اليوم لأن على الجميع أن ينضموا إلى الجيش. كانا يوزعان السجائر في كل مكان بل ويلقيانها على الأرض فيلتقطها أولاد كانوا لم يحلقوا ذقونهم بعد.

مقاتلان لاهيان، غازيان زاعقان. سكرانان بلا عقل.

كانا يصيحان "أنا لست تافها".

كان الناظر يحاول أن يفرض النظام. ولكن لأنها كانت لا تزال مرحلة مبكرة من الحرب، وكان لا يزال ثمة بعض الإجلال والاحترام للطلبة الذين تطوعوا للمشاركة، معرضين أنفسهم حسب القول السائر لسهام الموت، فلم يكن الناظر قادرا على إظهار القسوة التي لن تستعصي عليه بعد عام واحد.

قال "الآن، الآن"

قال له بيلي واطس "أنا لست تافها"

جاكسن كان فاغر الفم، ربما يقول نفس الجملة، ولكن عينيه في تلك اللحظة التقتا بعيني إليين بيشب فانتقلت بين الأعين معلومة ما.

فهمت إليين بيشب، فيما بدا، أن جاكسن كان سكران فعلا ولكنه السكر الذي يساعده على لعب دور السكران، ومن ثم يمكن السيطرة على السكر نفسه. (أما بيل واطسن فكان سكران، حقا وصدقا). بهذا الفهم نزلت إليين السلم، مبتسمة، وقبلت سيجارة ظلت تمسك بها بين إصبعيها. وضعت ذراعيها في ذراعي البطلين وسارت بهما حتى خرجوا من المدرسة.

وما كادوا يخرجون حتى أشعلوا السجائر. وحدث اختلاف حاد في الرأي حول هذا لاحقا، في محفل والد إليين. قال البعض إن إليين لم تدخن سيجارتها فعلا، بل تظاهرت بذلك تهدئة للولدين، بينما قال آخرون إنها فعلتها ولا شك. دخنت.

وضع بيل ذراعه حول إليين وحاول أن يقبلها، لكنه تعثر وجلس على سلالم المدرسة وراح يصيح مثل الديك. وفي غضون سنتين سيكون قد مات.

أما في ذلك اليوم فكان لا بد أن يرجع إلى البيت. شده جاكسن بحيث يستطيعان وضع ذراعيه على كتفيهما ويمشيان ويسحبانه. ولحسن الحظ

لم يكن بيته بعيدا عن المدرسة. تركاه هناك، وعبرا السلالم الأمامية، ثم دار بينهما حوار.

لم يكن جاكسن يريد الرجوع إلى البيت. لم لا؟ قال لأن زوجة أبيه هناك . وكان يكره زوجة أبيه. لماذا؟ من غير سبب.

كانت إليين تعرف أن أمه ماتت في حادثة سيارة وهو صغير للغاية، وكان حياؤه يعزى في بعض الأحيان إلى هذا الأمر. وكانت تعتقد أن الشرب ربما هو الذي يجعله يبالغ فلم تحاول أن تحمله على المزيد من الكلام.

قالت "أوكيه، يمكن أن تقيم في بيتي".

تصادف أن أم إليين لم تكن في البيت في ذلك الوقت بل تعتني بجدة إليين المريضة. وكانت إليين هي المسئولة عن البيت فكانت تحيله - لأبيها وأخويها - إلى فوضى. وكان هذا من حسن الحظ. لا لأن أمها كانت لتثير جلبة، ولكنها كانت لتريد أن تعرف الأصل والفصل ومن يكون هذا الولد؟ وعلى أقل تقدير كانت لتجعل إليين تذهب إلى المدرسة كالمعتاد.

جندي وفتاة، فجأة يقتربان هذا الاقتراب. في حين لم يكن ثمة من قبل أي شيء باستثناء اللوغاريتمات وتصريفات الأفعال.

أما والد إليين فلم يبال بهما. كان أكثر اهتماما بالحرب مما يليق بقس مثله في ظن بعض أبناء كنيسته. ولكن اهتمامه هذا هو الذي جعله يفخر بوجود جندي في بيته. كان من ناحية أخرى غير سعيد لعجزه عن إرسال إليين إلى الجامعة، فقد كان يدخر جزءا من راتبه الكنسي ليرسل الولدين إلى الكلية حينما يحين الأوان. وذلك أيضًا جعله يلين.

لم يتردد جاكسن وإليين على السينما. لم يذهبا للرقص. بل كانا يخرجان للمشي، مهما يكن الطقس، وغالبا بعد حلول الظلام. أحيانا كانا يدخلان مطعما لتناول القهوة، دون أن يحاولا التلطف مع أي أحد. فما الحكاية؟ هل كانا يقعان في الحب؟

ذهبت إليين إلى بيت جاكسن لتأتيه بأغراضه. رفعت زوجة أبيه حاجبيها الرفيعين وأظهرت سنتها الصناعية وحاولت أن تبدو مستعدة لشيء من الاستظراف.

سألت عما هما مقدمان عليه.

قالت وهي تضحك ضحكة صاخبة "عليك أن تتنبهي لهذه المسائل". كانت سمعتها أنها جعجاعة ولكن الناس يقولون إنها ليست مؤذية. أما إليين فحرصت أن تسلك مسلك السيدة النبيلة، لتثير حنقها.

حكت لجاكسن ما دار بينهما، وجعلت الحكاية ظريفة، لكنه لم يضحك.

اعتذرت.

"شكلك ممن يرسمون صورة كاريكاتورية لمن يعيشون في بيت القسيس"

قال لا بأس.

تلك فيما تبين كانت آخر مرة له في بيت القسيس. بعدها تبادلا الرسائل. كتبت إليين عن انتهائها من تعلم الآلة الكاتبة والاختزال وحصولها على وظيفة في مجلس المدينة. ورغم ما قالته عن التصورات الكاريكاتورية كانت تتعمد السخرية من كل شيء، ولم يكن ذلك دأبها في المدرسة. ربما تكون تصورت أن من يكونون في الحرب يكونون بحاجة إلى المزيد من النكات.

عندما كان مجلس المدينة يشهد زيجة سريعة كانت تتكلم عن "الزوجة العذراء".

وعندما كان كاهن بدين يزور بيت القسيس وينام في الغرفة الإضافية كانت تتساءل عما لو كانت المرتبة تبعث في النائمين أحلاما شقية.

وكان يكتب إليها عن الحشود في فرنسا وعن المناورات التي يقومون بها تفاديا للغواصات [الألمانية]. عندما وصل إلى إنجلترا اشترى دراجة وحكى لها عن الأماكن التي يذهب لزيارتها بالدراجة كلما كانت لديه فسحة من الارتباطات.

ثم عن اختياره لدراسة رسم الخرائط مما يعني أنه سوف يعمل خلف خطوط العدو إذا دعا الداعي (كان قد بدأ تلك الدراسة بعد دخول الحلفاء فرنسا).

ورغم أن لغة رسائله كانت أكثر سقما من رسائلها، فقد كانت موقّعة بـ مع حبي. وبعد دخول الحلفاء فرنسا ساد ما أسمته بالصمت الموجع، لكنها فهمت أسبابه، وعندما عاود الكتابة مرة أخرى كان كل شيء على ما يرام، لولا أن التفاصيل باتت مستحيلة.

في هذه الرسالة تكلم مثلما كانت تتكلم، عن الزواج.

وأخيرا جاء يوم انتصار الحلفاء في أوربا، ثم الرجوع إلى الوطن. وذكر في رسالته نجوم الصيف من فوقه.

كانت إليين قد تعلمت الخياطة. وكانت تخيط فستانا صيفيا جديدا على شرف رجوعه، فستانا من حرير أخضر ليموني بجيبة كاملة وأكمام قصيرة، يحيط به حزام جلدي ذهبي رفيع. وكانت تخطط لربط شريط من نفس القماشة حول قبعتها القش الصيفية.

"وهذا كله يوصف لك لكي تلاحظني وتعرف أن هذه هي أنا ولا تجري على أي امرأة جميلة يتصادف أن تكون موجودة في محطة القطار".

بعث لها رسالته من هاليفاكس يقول لها إنه سوف يستقل قطار المساء يوم السبت. قال لها إنه يتذكرها جيدا وإنه لا خطر من أن يخلط بينها وبين أي امرأة ولو غصت المحطة بالنساء في ذلك المساء.

في آخر أمسية قضياها معا في بيت القسيس جلسا في المطبخ تحت صورة الملك جورج السادس التي كانت في تلك السنة منتشرة في كل مكان وتحتها هذه الكلمات:

قلت للرجل الواقف عند أول العام "أعطني نورا أخطو به آمنا إلى المجهول".

قال لي "ادخل العتمة واضعا يدك في يد الرب، ذلك خير لك من كل نور وآمن لك من طريق وإن عرفته".

ثم صعدا بهدوء شديد ودخل ينام في الغرفة الإضافية. ولا بدّ أن مجيئها إليه كان أمرا تواطآ عليه لأنه لم يندهش.

كانت كارثة. تصرفت بطبيعتها، لم يبد أنها تعرف. وكلما اشتدت الكارثة، ازداد استعراضها لمشاعرها اهتياجا. لم يكن أمامه من سبيل ليوقفها عن المحاولة، أو للشرح. هل كان يمكن لفتاة أن تكون بهذا الجهل؟ وأخيرا افترقا وكأن كل شيء سار على خير ما يرام. وفي الصباح التالي ودّعها في حضور أبيها وأخويها. وفي غضون فترة قصيرة بدأ تبادل الرسائل، بمحبة بالغة. سكر وجرب مرة أخرى في ساوثمبتن. لكن المرأة قالت "كفى يا بني، أنت تعبان ومحبط".

لم يكن يحب في النساء والبنات أن يرتدين. قفازات، قبعات، جيبات

ذات حفيف، كل هذه الجلبة والمضايقة. لكن كيف كان لها هي أن تعرف؟ أخضر ليموني، لم يكن واثقا أنه يعرف اللون. بدا من اسمه أقرب إلى حامض.

ثم خطر له ببساطة أنه قد لا يحضر أحد.

هل قالت لنفسها أو لأحد آخر إنها لا بد أن تكون أخطأت التاريخ؟ حدث نفسه بأنها سوف تختلق أي كذبة، مؤكد، فهي في نهاية المطاف لم تكن تغلب.

الآن وقد مضت، شعر جاكسن بالرغبة في أن يراها. صوتها وإن كان محزونا كان كما هو لم يتغير، معجزة. يضفي على نفسه كل الأهمية، يتماوج بين طبقات الموسيقى. لم يكن يمكن أن يسأل المالك كيف كان شكلها، أو لو كان شعرها لا يزال داكنا، أم شاب، وهي نفسها نحيلة، أم بدنت. لم يكن قد انتبه إلى ابنتها كثيرا، إلا في حدود نفوره من الصاحب.

تزوجت. ما لم تكن حصلت على البنت بطريقة أخرى وذلك بعيد الاحتمال. لا بد أن لها زوجا ثريا، وأبناء آخرين. من بينهم هذه التي كسرت قلبها.

بنت من هذا النوع سوف ترجع. ستكون فاسدة جدا لو بقيت شاردة. سترجع عند الضرورة. حتى الأم ـ إليين ـ ألم يكن فيها شيء من الفساد هي نفسها، طريقة في ترتيب العالم والحقيقة على مقاسها، وكأنما ليس هناك ما يمكن أن يغلبها طويلا.

في اليوم التالي، كان كل ارتياح شعر به بشأن خروج هذه المرأة من حياته قد تبدد. لقد عرفت المكان، وقد ترجع. وقد تقيم لفترة في المنطقة، وتروح في الشوارع وتجيء، محاولة أن تشمشم وتتقصى. وفي تواضع، لكنه تواضع زائف، تستفسر من الناس، بالصوت المدلل المتزلف. قد يتصادف أن يجدها أمامه وجها لوجه أمام الباب.

يمكن سد الأبواب فعلا، ولكن بشيء من العزيمة. عندما كان في السادسة أو السابعة سد الباب دون استغفال زوجة أبيه، استغفالها أو عبثها وهي تحممه. هرب إلى الشارع بالليل لكنها لحقت به وأرجعته، وعرفت مع ذلك أن الهروب سوف يكون حقيقيا لو لم تتوقف فتوقفت. قالت إنه ولد سخيف لأنها لم تكن لتعترف أن أحدا في هذا العالم يكرهها. لكنها كانت تعرف أنه يكرهها حتى وإن لم يكن بوسعها أن تعترف بهذا ولكنها توقفت.

قضى ثلاثة أيام أخرى في العمارة المسماة بوني داندي. كتب للمالك سجلا بكل شقة وبنوعية كل صيانة وميعاد إجرائها. قال إنه مُستدعَى، ولم يقل من استدعاه أو إلى أين أو لماذا. أفرغ حسابه المصرفي وحزم أغراضه القليلة، وفي المساء، في آخر المساء، استقل القطار. نام نوما متقطعا طوال الليل، وفي إحدى مناماته رأى صبية مينونيت يمرون به بعربتهم. سمع أصوات غنائهم الحلوة.

وهذا سبق أن حدث في أحلامه.

في الصباح ترك القطار في كابوسكيسينج. كان بوسعه أن يشم رائحة الطواحين، وكان الهواء البارد يبث فيه الشجاعة.

الكاتبة :

ولدت أليس مونرو في العاشر من يوليو سنة ١٩٣١، في مقاطعة ونجهام بولاية أونتاريو الكندية، لأم معلمة وأب لديه مزرعة لتربية الثعالب، وغيرها من الحيوانات المنتجة للفراء. بعدما انتهت من دراستها الثانوية، بدأت تدرس الصحافة واللغة الإنجليزية في جامعة أونتاريو الغربية، لكنها توقفت عن الدراسة بزواجها سنة ١٩٥١. أقامت مع زوجها في فكتوريا بولاية كولمبيا البريطانية، حيث افتتحا معا متجرًا للكتب. بدأت كتابة القصص في مراهقتها، وبدأت تنشر في المجلات في الخمسينيات، ثم أصدرت كتابها الأول في عام ١٩٦٨ بعنوان "رقصة الظلال السعيدة" فحظيت المجموعة باهتمام نقدي كبير. بعد طلاقها سنة ١٩٧٢، رجعت إلى أونتاريو، وتزوجت من جديد، وظلت تعيش هناك وتكتب قصصها، وتنشر مجموعة كل أربع سنوات تقريبا، آخرها "حياتي العزيزة" (٢٠١٢) والتي قالت إنها مجموعتها الأخيرة، ولو أن زعم التقاعد هذا ليس جديدا في حياة مونرو المهنية، فقد سبق أن أعلنت تقاعدها عام ٢٠٠٦. أثنى النقاد على قصص مونرو لما فيها من حكي رهيف وواضح، والتزام بالواقعية النفسية، حتى إن بعض النقاد قد اعتبرها تشيكوف الكندي. أحداث قصصها تجري في الغالب في بلدات ومدن صغيرة، وغالبا ما تبدأها في مكان غير متوقع ثم تنطلق منها في اتجاهي الزمن كليهما، بحرية تامة، الأمر الذي جعل بعض النقاد يرى أنها أحدثت ثورة في المعمار القصصي. وتعتمد في الغالب على الراوي العليم، ويرى بعض النقاد أن بطلاتها أكثر تعقيدا من أبطالها النادرين بصفة عامة في قصصها.

- حصلت أليس مونرو على جائزة نوبل في الآداب سنة ٢٠١٣.

المترجم :

أحمد شافعي، كاتب ومترجم، ولد عام ١٩٧٧. صدر له كتابان شعريان هما "وقصائد أخرى" (دار النهضة، بيروت، ٢٠٠٩) و"طريق جانبي ينتهي بنافورة" (الهيئة العامة لقصور الثقافة، وزارة الثقافة المصرية ـ ٢٠٠٠، طبعة محدودة)، وروايتان: "الخالق" (الكتب خان ـ ٢٠١٣) و"رحلة سوسو" (الهيئة العامة لقصور الثقافة، وزارة الثقافة المصرية ـ ٢٠٠٣).

ترجم إلى العربية "العالم لا ينتهي" للشاعر الأمريكي تشارلز سيميك (٢٠١٣)، و"الغرفة رقم ٧ ـ مختارات من قصيدة النثر الأمريكية"، (٢٠١٢)، و"رجل القمر"، للشاعر الأمريكي بيلي كولينز(٢٠٠٦)، و"وجه أمريكا الأسود..وجه أمريكا الجميل ـ مختارات من الشعر الأفروأمريكي" (٢٠٠٥)، و"فندق الأرق" لتشارلز سيميك (٢٠٠٤)، و"امرأة عادية .. قصائد وذكريات" للشاعرة الأفروأمريكية ليوسيل كليفتون (٢٠٠٤).